الدعوة إلى العامية في الجزائر ومخاطرها الحضارية على اللغة العربية

أ. د. محمد زرمان و أ. د. عبد السلام ضيف

تُعَدُّ الدعوة إلى استعمال العامية في التعليم حلقة من سلسلة طويلة من المؤامرات التي ما فتئت تتعرض لها اللغة العربية في الجزائر. فقد عرفت الحقبة الاستعمارية مشروعا مماثلا كان الهدف منه تغييب العربية الفصيحة واستبدالها بعامية ركيكة لا تلبث أن تندثر بتأثير قوة اللغة الفرنسية، حيث جنّد الاستعمار منذ أواخر القرن التاسع عشر نخبة من كبار المستشرقين لدراسة اللهجات المحلية الجزائرية دراسة وافية وتسجيل مفرداتها، ثم تكفلت جامعة الجزائر في بدايات القرن العشرين باحتضان هذه الدراسات وإثرائها، وبناءً عليها تم إعداد برامج تعليمية للتلاميذ الجزائريين تمهيدا لفصلهم عن كل ما يربطهم بالعربية الفصيحة.غير أن الجهود الإصلاحية الكثيفة التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإحياء اللغة العربية وإعادة الاعتبار لها أفشل هذا المشروع وجعله أثرا بعد عين.

وبعد حصول الجزائر على استقلالها تولّى اللوبي الفرانكفوني مهمة إقصاء العربية وتهميشها وإضعاف مركزها في جميع المؤسسات الرسمية، ثم استفرغ الجهد في محاربة القوانين القاضية بتعميم استعمال العربية في جميع المرافق الحيوية، ولم يتوانَ مرارا وتكرارا في أن يجمّد استعمالها كلما واتته الفرصة في مقابل إفساح المجال واسعا للفرنسية لتنتشر وتتمدّد في الواقع الجزائري بكل مستوياته، ثم جاءت الدعوة إلى استعمال العامية في التعليم بشكل رسمي لتكون خطوة جديدة نحو القضاء التدريجي على اللغة العربية وتصفية وجودها. وقد صدرت هذه الدعوة قبل ذلك عن بعض الأصوات الناشزة التي تدعم التيار الفرانكفوني ولكنها لم تجد لها آذانا صاغية لتناقضها مع التوجهات العامة للمجتمع الجزائري، منها اقتراح ابن زاغو عام ١٩٧٩م عندما كان عضوا في لجنة التربية خلال المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطني بأن يجري التدريس باللغة العامية، وعندما رفض الجميع اقتراحه ولم يجد من يسانده انسحب من المؤتمر قبل اكتمال فعالياته. ومنها دعوة مليكة قريفو إلى ذلك أيضا عام ١٩٨٩م من خلال كتابها " المدرسة الجزائرية من ابن باديس إلى بافلوف" الذي أثار ضجة كبيرة استنكرت الدعوة وفنّدتها، ومنها إلباس القضية لباسا علميا بادعاء أن التدريس بالعامية سيمنحها فرصة للنمو وللتطور على غرار اللغات الأوروبية التي انتهى بها الأمر إلى أن انفصلت عن اللاتينية وأصبحت قادرة على القيام بدورها في تنمية المجتمع وترقيته، وكأنه يلمّح إلى أن القصد من الدعوة إلى العامية هو إماتة الفصحى وتغييبها من حياة العرب تغييبا تاما.وها هي هذه الدعوة تقفز من جديد إلى رأس الاهتمامات وتثير انشغال المجتمع بكل أطيافه بعد أن تبنّتها بشكل رسمي وزيرة التربية والتعليم في الجزائر نورية بن غبريط رمعون، وقدمت لها المبررات التي تنبئ عن أنها تقترب من أن تكون مشروعا مكتمل الجوانب.

ولا يخفى على أحد أن الدعوة إلى التدريس بالعامية ارتبطت منذ ظهورها بالاستعمار، سواء في المشرق أم في المغرب، وكانت تحمل في طياتها أهدافا مشبوهة. وقد أسهب اللغويون والباحثون المتخصصون في بيان أخطار هذه الدعوة على العربية، وأوضحوا أن من أشد هذه المخاطر التدمير الشامل للهوية العربية الإسلامية التي تُعَدُّ المرتكز الرئيسي للوجود التاريخي للشعب الجزائري، وقد اعترف أحد الداعين إلى التعليم بالعامية أن هذه خطوة ضرورية لتفريغ العربية من مخزونها الديني (ويقصد الإسلامي) وتحريرها من الارتباط التاريخي بالعقيدة وذلك بقطع سبل تواصل الأجيال بمرجعيتها المقدسة ومصادر تراثها.

وتتجلى هذه المخاطر أيضا في ضرب الوحدة الوطنية بافتعال تعدد العاميات بتعدد مناطقها، فتصبح لكل منطقة عاميتها التي تدرس

بها أبناءها، فينفرط عقد المجتمع ويضيع الرباط الجامع لعقول أفراده، وتتفرق بهم السبل، ويبرز الصراع اللغوي الذي يهدد انسجام المجتمع وأمنه العام، إذ المعروف أن بين اللغة والمجتمع رحما موصولة لأنها العامل المركزي الذي يحمي النسيج الاجتماعي من التفكك.

ومن هذه الأخطار تكريس التخلف وعرقلة مسيرة التنمية البشرية بالعدول عن اللغة العربية باعتبارها لغة مقنّنة ومنضبطة بقواعد معلومة إلى لغة عامية لا تملك أيَّ رصيد من التقنين. ذلك أن اللغة هي التي تنتج المعرفة وتنقلها وتطورها، والمراهنة على العامية التي لا تزال في الطور الشفهي ينبئ عن فشل ذريع في فهم العملية التعليمية أو عن كيد خفيّ يسعى إلى توريط هذه العملية في طريق مسدود حتى يتسنّى لأصحابه استبعادها كليا وإحلال اللغة الفرنسية مكانها في مرحلة زمنية لاحقة بدعوى عجزها عن مواكبة التطور العلمي، ونقل المعارف التي تتعقد يوما بعد يوم.

وتهدف هذه الورقة إلى دراسة الدعوة إلى العامية في الجزائر ومخاطرها على اللغة العربية من خلال تحديد الإطار المفاهيمي لمصطلحات البحث، ورصد جذور الدعوة إلى العامية في الوطن العربي، وتتبع الدعوة إلى العامية في الجزائر أثناء العهد الاستعماري، ثم بيان المسار التاريخي للدعوة إلى العامية في الجزائر وشمال إفريقيا في عهد الاستقلال، والوقوف بعدها عند المخاطر والآثار الحضارية والاجتماعية والمعرفية المترتبة عن استعمال العامية، ونختم باقتراح إستراتيجية شاملة لمواجهة هذه الدعوة، وحماية اللغة العربية من تداعياتها.

أولا: قراءة في الإطار المفاهيمي للبحث

يجدر بنا قبل أن نخوض في إشكالية البحث ونحلل عناصره أن نضبط مصطلحاته ونضع لها حدودا توضّح دلالاتها ومعانيها بدقة، وتعيننا على مناقشة مقولاته. والمصطلحات الرئيسية التي تحتاج إلى ضبط وتعريف هي: اللغة العربية الفصحى، اللهجة العامية، الدارجة واللهجة، وهي التي تمثل المحاور الرئيسة التي يدور عليها البحث.

أ- مفهوم اللغة العربية الفصحى:

نبدأ بتعريف العربية الفصحى باعتبارها اللغة الأم التي تفرعت عنها جميع العاميات واللهجات التي يراهن عليها أعداء العربية لفرض استعمالها طمعا في القضاء على الفصحى وتغييبها. واللغة العربية الفصحى هي إحدى اللغات السامية، وهي أكبر لغات المجموعة السامية من حيث عدد المتحدثين بها، وإحدى أكثر اللغات انتشارا في العالم اليوم. وأصلها الأول أنها كانت طوال العصر الجاهلي لهجة قريش، لكن العرب - تعظيما منهم للكعبة التي كانت محط عباداتهم ونذورتهم وملتقى شعرائهم وخطبائهم وحكمائهم - اتخذوها لغة نموذجية لتواصلهم ولغة أدبية لشعرهم ونثرهم، ثم كان الحدث التاريخي الأبرز الذي ضمن لها الانتشار والرسوخ والديمومة وهو نزول القرآن الكريم بها، فأصبحت لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهما العاملان اللذان كان لهما أعظم الأثر في توطيد دعائمها، وتقوية سلطانها على الألسنة، حيث هذباها، ونقحاها، ونهضا بها إلى أرقى مستوى، وفتحا لها أبوابا كثيرة من فنون القول فعالجت بمهارة كل أنواع العلوم: " كمسائل القوانين والتشريع، والقصص والتاريخ، والعقائد الدينية، والجدل فيما وراء الطبيعة، والإصلاح الاجتماعي، والنظم السياسية، وشؤون الأسرة، وأصول القضاء والمعاملات، ودراسة مظاهر الفلك، والطبيعة، والحيوانات، والنبات وهلمَّ جرا"[١]. وأصبحت بذلك هي اللغة الجامعة لتراث الأمة الإسلامية على امتدادها الجغرافي، وعمقها التاريخي، وقد حُفِظت بحفظ كلام الله، وهي ثابتة في نحوها وصرفها وقواعد نظمها ولفظها، لكنها نامية ومتطورة في ألفاظها ودلالاتها وأساليبها ومصطلحاتها، وهذا ما جعلها تحافظ على توهجها وعالميتها عبر القرون.

وتُعَرَّف اللغة الفصحى: "بأنها لغة الكتابة التي تُدَوَّن بها المؤلفات والصحف والمجلات، وشؤون القضاء والتشريع والإدارة، ويؤلف بها الشعر والنثر الفني، وتستخدم في الخطابة والتدريس والمحاضرات، وفي تفاهم العامة إذا كانوا بصدد موضوع يمت بصلة إلى الآداب والعلوم"[٢].

ومع الانتشار الواسع الذي أتيح للعربية في ظل انسياح الدعوة الإسلامية في أقطار الأرض انحرفت الفصحى على الألسنة

واتخذت طوابع الأقطار المختلفة التي انتشرت فيها: "وأخذت تتشعب إلى لهجات يختلف بعضها عن بعض، وتختلف عن أصلها الأول في مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات، وسلكت كل لهجة في تطورها منهجا يختلف عن غيرها، وأصبحت مساحة الخلف تتسع بين هذه اللهجات حتى أصبح بعضها غريبا عن بعض"٣، وهذا راجع إلى عوامل عديدة منها عوامل نفسية واجتماعية وجغرافية وسياسية وغيرها، وهذه اللهجات هي التي أصبحت تعرف بالعامية في مقابل العربية الفصحى.

وقد تنبّه اللغويون الأوائل الذين أشرفوا على جمع العربية وتقعيدها أن اللحن قد بدأ يفشو على ألسنة الناس، سواء منهم العرب الذين ولدوا بعيدا عن موطنهم الأصلي وخالطوا أبناء الشعوب المفتوحة، أم الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام وغلبت عجمتهم على لسانهم فانحرفوا في نطق العربية ومالوا بها عن أصلها ويعرف أحمد بن فارس اللحن بأنه: "إمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية...وهو محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة"٤. لذلك اتجه علماؤنا الأوائل إلى تدوين الكتب الخاصة بالعامية وألفوا سلسلة كُتُب عُرِفَت بكُتُب لحن العامة أو حركة التَّصويب اللغوي، امتدّت عبر تاريخنا الإسلامي وبدأت منذ القرن الثاني الهجري. وكان الهدف منها إصلاح العربية والتنبيه إلى الفساد الذي اعترى الألسنة، وخدمة الفصحى عن طريق تقويم ألسنة العامة وتصحيح أخطائهم. ومن أمثلة هذه الكتب: كتاب ما تلحن به العوام للكسائي، وكتاب ما تلحن فيه العامة للأصمعي، وكتاب ما تلحن فيه العامة لثعلب وغيرها كثير. وعاشت الفصحى إلى جانب العامية دون أن يحدث بينهما تنافس أو مزاحمة.

ب- مفهوم العامية : العامية -

كما أسلفنا. فرع عن الفصحى، تحررت من بعض قواعدها وأساليبها وضوابطها لتعبر عن الحاجات اليومية والانفعالات الآنية ولتصبح لونا خاصا من ألوان النطق الذي يشيع بين الناس في الشوارع والبيوت، لذلك عرَّفها بعضهم بأن: "العاميُّ من الكلام ما نطق به العامة على غير سَنَنِ الكلام العربيّ"، أي أنها كل وجه لغويّ يخالف أصل اللغة. وهي- على خلاف الفصحى المقيدة بالقواعد - عرضة للدخيل من الألفاظ الأجنبية التي ترد إليها بحكم ما يجري بين الجماعات البشرية من الاحتكاك والتثاقف وانتقال السلع والمنتجات الاستهلاكية والأفكار الجديدة التي لا ينتظر أصحابها إذنا من المجامع اللغوية فيستعملونها كما هي ويكيّفونها حسب أساليب نطقهم لتؤدي الغرض منها، لأن العامية بطبيعة وظيفتها التواصلية لا تبالي أن تستحدث ما ليس له أصل في الفصيح، ولا تبالي أن يكون فيها ألفاظ داخلتها على مر القرون من لغات قديمة أو تسربت إليها من اللغات الأجنبية الحديثة، وهي تترك هذه الألفاظ على ما هي عليه وقد تحرّفها ولكنها لا تعربها٥.

وتُعَرَّفُ العامية بأنها: "طريقة الحديث التي يستخدمها السواد الأعظم من الناس، وتجري بها كافة تعاملاتهم الكلامية، وهي عادة لغوية في بيئة خاصة تكون هذه العادة صوتية في غالب الأحيان"٦. وهي في جوهرها مزيج بين ثلاثية اللهجة واللغة الأصيلة وبعض ألفاظ اللغات الدخيلة، وقد لازمت العربية منذ أقدم عصورها دون أن تزحزح الفصحى عن مكانتها.

ج- مفهوم اللهجة :

أما اللهجة فهي عامية مطبوعة بطابع بيئتها الخاصة، وقد عرفها إبراهيم أنيس بأنها: "مجموعة الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد البيئة، والعلاقة بين اللغة واللهجة هي علاقة الخاص بالعام، لأن بيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة الظواهر اللغوية"٧، وذهب محمد عيد إلى أنها: "عرف محلي خاص لقبيلة واحدة، أو مجموعة من القبائل تجمعها بيئة اجتماعية واحدة"٨.

ويكاد يجمع اللغويون والدارسون أن وجود العامية إلى جانب اللغة الأصلية ظاهرة طبيعية تعرفها جميع لغات العالم، وبخاصة منها اللغات العريقة ذات التراث الفكري الغزير، والإنتاج العقلي الغنيّ: "والدراسات اللغوية تثبت أن وجود مستويات التعبير في اللغة الواحدة أمر طبيعي بل حتمي، وأنه لا يتنافى بين استعمال (لغة مثالية) في العلم والخلق، ووجود مستوى أدنى من البلاغ اللغوي المباشر المتميز"٩، وهذا الوضع: "ظاهرة ألسنية عالمية تنطبق على عدد كبير من اللغات، لذا لا تشكل اللغة العربية حالة استثنائية وفريدة، بل تتساوى في

ظاهرتها هذه مع عدد كبير من اللغات"١٠.

والسبب الرئيس الذي يكمن وراء هذه الظاهرة، أن الطبيعة البشرية تفرض أن تكون اللغة التي يتواصل بها الأفراد في حياتهم اليومية البسيطة لقضاء حاجاتهم ومجاملة بعضهم والتندر في مجالسهم وتبادل أخبارهم الشخصية بين أبنائهم وأهاليهم وأصدقائهم تختلف حتما عن تلك اللغة التي تتطلب الجد وتخاطب العقل وتطرح الموضوعات العلمية الدقيقة وتناقش القضايا الفكرية المعقدة: "في كل لغة بشرية لسان عامي ولسان فصيح، ازدواجية هي ذاتها امتداد لازدواجية الفكر وهي العقل والحس، فالعامية تعبّر عن لغة الحسّ المفكّكة المفاصل، والفصحى تعبّر عن لغة العقل المرتبطة المفاصل"١١.

ويقرر اللغوي الأمريكي فيشمان Fischman أن الحالة التي تكون فيها لغةٌ من اللغات خاليةً من ظاهرتَي الازدواجية (bilinguisme) والثنائية (diglossie) معاً، هي حالةٌ نظريةٌ فقط لا تظهر عملياً إلا في بعض المجتمعات الصغيرة المعزولة، وأما القاعدة العامة فهي أن كل المجتمعات تتَّجه نحو تنويع مُستويات الاستعمال اللغوي١٢.كما سجَّلَ اللغوي الاجتماعي الأمريكي فرجوسون Ferguson أن الثنائية (diglossie) المُكوَّنة من مُستَوَيَين اثنين للغة واحدة (فصيح وعامي)، هي ثنائية مستقرَّةٌ ومقبولةٌ قَبولاً تاماً من المجتمع الذي يتعايشُ فيه هذان المستوَيان المختلفان في تكامل وتوزيع للوظائف، رغم أن أحدهما يُنزَّلُ في منزلة رفيعة ويُستعمَلُ في الكتابة والأدب وتُضفَى عليه قيمة عالية، والثاني يُستعملُ في الخطاب العاديّ والتفاهُم بين مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية، ويُنزَّلُ في مرتبة أدنى من الآخر.١٣

أما الوضع غير الطبيعي فهو أن يتباعد مستوى اللغة الفصيحة عن مستوى اللغة العامية تباعدا يجعل أحدهما غير مفهوم لدى الآخر. فإذا لم يفهم مجتمع عربي ما في بلد عربي ما عربيته الفصيحة فهذا مؤشر الخطر:"لأن ذلك يعني انفصال حاضر اللغة عن ماضيها بفعل لغة دخيلة أوجدتها ظروف قاهرة كالاستعمار مثلا، لأن منتهى ذلك ثنائية لغوية بوصفها حالة مرضية لا بد من القضاء عليها وتحجيم دورها"١٤.

وخلاصة القول أن بين الفصحى والعامية علاقة متينة كعلاقة الفرع بالأصل، وهي ظاهرةٌ مألوفةٌ وموجودةٌ في كل اللغات بنِسَبٍ متفاوتة، ولم تكن في يومٍ من الأيام عائقاً كبيراً يَحُول دون تطوُّر الفصحى ونموِّها وانتشارها.

ثانيا: جذور الدعوة إلى العامية في المشرق العربي

تتصل الدعوة إلى العامية في الوطن العربي بجذور عميقة تمتد إلى بدايات المد الاستعماري الأوروبي وترتبط بمشروع الغزو الشامل للبلاد العربية والذي تم التمهيد له بزرع شبكة من الجواسيس الذين كانوا يتعلمون اللهجات العربية المختلفة في عدد من المدارس التي أُنشِئت في أنحاء متفرقة من أوروبا (إيطاليا، النمسا، بريطانيا، المجر، فرنسا) ثم يتم زرعهم في طول البلاد الإسلامية وعرضها في هيئة قناصل وسفراء وتجار وما إلى ذلك من الوظائف التي تتيح لهم الاحتكاك المباشر والمستمر بأعماق المجتمعات العربية، كما يتصل هذا الاهتمام والإقبال على دراسة العاميات العربية وتدوين ألفاظها ونصوصها بالتبشير الذي كان ذراعا قوية من أذرع الاستعمار في التمكين له في بلاد المسلمين. وقد حمل عبء هذه المهام جيش المستشرقين الذين تكونوا في مدارس اللغات الشرقية والذين لم يكونوا يرون في الجمع بين الصبغة العلمية لدراساتهم والأهداف الاستعمارية لبلدانهم أية غضاضة:"ويتضح لنا من ذلك مدى التداخل بين الأهداف العلمية والأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية للاستشراق، وهذا أمر مفروغ منه في نظرنا، لأن المستشرقين ، أغلبهم إن لم نقل كلهم، كانوا يرون في ذلك خدمة وطنية أو واجبا قوميا لشعوبهم ودولهم يؤدونه عن طيب نفس وخاطر"١٥.

ويذكر أحد الدارسين، أن البدايات الأولى لتأليف المعاجم التي تدوِّن العاميات العربية تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي على يد الرهبان الإسبان الذين عكفوا على جمع مواد العامية الأندلسية بغرض الاستعانة بها لتنصير مَن بقي من المسلمين في الأندلس بعد سقوطها، وأشهر مَن ألَّف في هذا الميدان الراهب الإسباني بدرو دي ألكالا (Pedro de Alcala) الذي وضع معجما في العامية الأندلسية يمثل لهجة أهل غرناطة وما يحيط بها، ونشره بغرناطة عام ١٥٠٥م ليكون دليلا للقائمين على تنصير المسلمين آنذاك١٦. ثم توالت الجهود في هذا المضمار لخدمة مشروع التوغل الخفيّ للقوى الاستعمارية في مختلف البلدان العربية تحت ستار التجارة حينا والدبلوماسية حينا آخر.

وبعد أن أحكمت أوروبا قبضتها على البلاد العربية كان من أولى أولوياتها تكريس الضعف والوهن فيها، ومنع كل محاولات الإصلاح والنهوض ووأدها في مهدها، والمحافظة على نفوذها وقوتها فيها، وتحطيم كل المقومات الحضارية التي تلهمها روح المقاومة والممانعة، ويأتي على رأسها الإسلام والعربية. لذلك واجهت العربية من طرف الدوائر الاستعمارية حربا شرسة لإضعافها ثم تهميشها ثم عزلها تماما عن الحياة لإدراكهم لأهميتها وقدرتها على الحفاظ على هوية الأمة بما تحمله من بصمات حضارية وثقافية تصوغ الوحي وتحمي الخصوصية، ولأنها الرابط المتين الذي يصل الأمة بكتابها الذي تستمد منه قيمها ومبادئها ورؤيتها للحياة والوجود.

يقول أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) مبرزا الأهمية القصوى للغة العربية في تحقيق الوحدة العربية والإسلامية: "إن هناك بلادا إسلامية عربية اللغة، وإذا كانت لغة التخاطب تختلف حسب المناطق (ويعني اللغات العامية) فإن اللغة الفصحى واحدة من شواطئ الخليج العربي، ومن حلب والموصل شمالا، حتى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار جنوبا. جميع الكتب والصحف الصادرة في القاهرة ودمشق وبيروت تُقْرَأُ في هذه المناطق الشاسعة كلها وحتى خارجها، لأن اللغة العربية هي اللغة الدينية لجميع البلدان الإسلامية حتى تلك التي لا تستخدمها في التخاطب"١٧، ثم يقترح تحطيم هذه الوحدة اللغوية وهدمها ليتمكن الغرب من فرض نموذجه الحضاري على الوطن العربي فيقول: "فهل من الضروري أن يُجَزَّأَ هذا العالم العربي إلى عشرين دولة مستقلة تعيش بعزلة تامة عن بعضها البعض؟ وهل من الضروري حقيقة أن نرى العالم العربي يتفكَّك ويتجزَّأ كما حصل مع الأسف للإمبراطورية الإسبانية الأمريكية؟"١٨.

وقد تجلت أبعاد هذه المؤامرة بشكل واضح على الساحة المصرية التي كانت مسرحا لدعاتها، وميدانا فسيحا للرافضين لها من أبناء العربية المخلصين. وتفيدنا المصادر التاريخية والفكرية أن أولى الأصوات التي تبنّت الدعوة إلى العامية قد ارتفعت في مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر لخدمة هذا الهدف الاستعماري الإستراتيجي، عندما ظهرت بعض الكتابات على يد مجموعة من الأوروبيين تدعو إلى تهذيب العامية وضبط قواعدها واتخاذها لغة للفكر والأدب، والتخلي عن الفصحى لصعوبتها وتعقيدها وعجز المتعلمين عن الإلمام بها. ويأتي على رأس هؤلاء ولهلم سبيتا wilhelm Spitta الذي شغل منصب مدير دار الكتب المصرية أثناء الانتداب البريطاني لمصر وأصدر كتابا عام ١٨٨٠م بعنوان "قواعد العربية العامية في مصر"، دعا فيه إلى اتخاذ العامية لغة لكتابة الأدب، وأعرب عن تذمره من صعوبة الفصحى، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فتجرأ على اقتراح كتابة هذه العامية بالأحرف اللاتينية. ويعدّ الباحثون هذا الكتاب: "أول محاولة جدية لدراسة لهجة من اللهجات العربية المحلية، وهو الذي خلق معظم مشاكلنا الأدبية واللغوية التي استنفذت جهدنا ووقتنا في هذا العصر"١٩.

وتتابعت بعد ذلك الكتب والرسائل التي تروّج لهذه الدعوة، وتحفر لها مجرى في الواقع العربي، وتبحث لها عن الأنصار في أوساط النخبة المثقفة وعن السند القانوني والدعم الحكومي. وكان جميع روادها من المستشرقين الأوروبيين الذين تبنّوا دعوة ولهلم سبيتا wilhelm Spitta، ومنهم كارل فولرس Karl Vollers الذي كان أيضا مديرا لدار الكتب المصرية، والذي أصدر هو الآخر كتابا عام ١٨٩٠م بعنوان "اللهجة العربية الحديثة في مصر"، كرر فيه ما اقترحه سبيتا قبل عشر سنوات، وندد بجمود العربية الفصحى، ودعا إلى تجاوزها والاحتفاء بالعامية ليتحرر العرب من التخلف، وجاء بعده سلدن ولمور Seldon Willmore القاضي بالمحاكم الأهلية المصرية، فألف كتابا عام ١٩٠١م بعد عشر سنوات أيضا سماه "العربية المحكية في مصر"، ردد فيه ما قاله سابقوه، وزعم أن الأمية المتفشية في الشعب المصري ناتجة عن إرغامه على تعلم القراءة والكتابة بالعربية الفصحى بكل ما تتميز به من صعوبة وتعقيدات، وادَّعى أن العامية المصرية تختلف عن الفصحى اختلافا بيّنا، وهي قريبة في أصولها إلى فروع اللغات السامية منها إلى العربية، وناشد الحكومة المصرية أن تدعم رأيه وتفرض التعليم بالعامية بقوة القانون٢٠.

وحذا حذوهم وليم ولكوكس William Willcoks مهندس الريّ بالقاهرة الذي ألقى محاضرة بنادي الأزبكية عام ١٨٩٣م عزا فيها غياب قوة الاختراع لدى العرب عامة والمصريين خاصة إلى اعتمادهم في القراءة والكتابة على العربية الفصحى لأنها صعبة وجامدة، وذهب إلى أن تأثير العرب في العامية المصرية قليل جدا، وأن أكثر تأثرها كان بالبونية٢١ التي ورثها المصريون من الهكسوس، وهي أكثر ارتباطا بالنموذج الأساسي للغة العبرية واللغات السامية منها باللغة العربية. وشجع المصريين على نبذ الفصحى، واتخاذ العامية أداة للتفكير والتعبير اقتداءً بالأمة الإنجليزية التي هجرت اللاتينية إلى لغتها الأم فأحرزت أنواع التقدم وصارت رائدة في العلوم والمعارف،

وأعرب عن أمله في أن تجد دعوته آذانا صاغية: "ومصر ستتخلص بدورها من لغتها العربية الأكاديمية وستستخدم لغتها القومية... وستتمتع في عالمها الجديد بفكر مبتكر"٢٢.

وقد بذل ولكوكس Willcoks جهودا مضنية في سبيل إنجاح دعوته وتجسيدها في أرض الواقع، فترجم قطعا من مسرحيات شكسبير إلى العامية وعرضها على المسرح ليشجع على كتابة الأدب بها، وكتب الإنجيل بالعامية، ونشر عام ١٩٢٦ رسالة بعنوان "سوريا ومصر وشمال إفريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية" حاول أن يثبت فيها أن اللغة العامية التي يتكلمها العرب من حلب إلى مراكش هي اللغة الكنعانية أو الفينيقية أو البونية ولا صلة لها بالعربية: "والمصرية كلغة بونية تفيض بكلمات قوية قاطعة مختصرة، وتعبيرات قصيرة دالة، ولقد تجنبت اللغة العربية الفصحى هذه الكلمات كما لو كانت سما، وعلى ذلك فمصر تدفع غاليا بتبديد ثروتها القومية لقاء ما يقدمه المغرورون المتظاهرون بغزارة العلم والأساتذة من ثمن، وهو خدمة لغة معينة واحدة يعملون لصالحها وحدها"٢٣.

لقد كانت الكتابات الاستشراقية التي تبنّت الدعوة إلى العامية مشحونة بروح العداء للعربية الفصحى، والرغبة الأكيدة في استبعادها عن الميدان الفكري والأدبي، ومحاصرتها وتهميشها تمهيدا للقضاء عليها. وهي التي فجرت الصراع في البيئة العربية بين دعاة العامية والمدافعين عن الفصحى. ذلك أن الأدباء والمفكرين العرب الذين أيدوا استعمال العامية كبديل للفصحى لم يجرؤوا على الدعوة إلى ذلك إلا بعد أن راجت الدعوة على يد المستشرقين في ظل الاحتلال البريطاني. وكانت علاقة الكتاب والشعراء بالعامية قبل ذلك محصورة في هدف واضح يرمي إلى ضبطها واستخدامها في مواضيع مخصوصة كالترفيه عن العامة، أو تهذيبهم وتثقيفهم، ولم يخطر ببالهم أن يزاحموا بها الفصحى ويجعلوها أداة للكتابة الأدبية والفكرية بدلها.

وتشير بعض الدراسات إلى أن أولى الدعوات إلى العامية والصادرة من جانب العرب جاءت على يد مجلة المقتطف التي تبنَّت الدعوة عام ١٨٨١م وساقت لها التبريرات نفسها التي طرحها الأوروبيون، ودعت إلى ضبط العامية حتى تصير صالحة لكتابة العلوم بها اقتداء بالأمم الأوروبية، زاعمة أن علة تأخرنا هو الخلاف بين لغة التكلم ولغة الخطابة. ودعت رجال الفكر إلى بحث هذا الاقتراح ومناقشته٢٤، فأيّدها في ذلك بعض القراء وعارضها كثيرون من أهل الفكر والأدب. وعند صدور كتاب ولمور Willmoreعام ١٩٠١م قرظته مجلة المقتطف وأشادت بصاحبه، مما أعاد الصراع بين العامية والفصحى على أشده على صفحات الجرائد والمجلات المصرية آنذاك.

كما عرفت صفحات مجلة الأزهر التي أسسها وليم ولكوكس William Willcoks ألوانا من هذا الصراع بينه ونخبة من المصريين الذين نشروا ردودهم المعارضة لدعوته، والمفندة للفكرة التي روّج لها وادعى فيها أن المصريين لا يملكون قوة الاختراع لإصرارهم على استعمال الفصحى في التعليم والكتابة، وممن تصدى لها وكشف أهداف هذه الموجة الفكرية البعيدة وردَّ شبهاتها إبراهيم مصطفى وأحمد سليمان والسيد الزمزمي وغيرهم٢٥.

ثم ما لبثت هذه الدعوة أن اتسع نطاقها وخرجت من دائرة الأجانب، وظهر لها أنصار جُدُد من المثقفين العرب، تدعمهم الدوائر الاستعمارية والاستشراقية، فتلقفوها وجهروا بها بدعوى التقدم والتحضر. وإذا كان قاسم أمين قد عبّر عن تأييده لها في استحياء عندما اقترح إلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات وقال "إن الأوروبي يقرأ لكي يفهم أما نحن فنفهم لكي نقرأ"، فإن من جاء بعده كان أكثر جرأة في مطالبه، ويأتي على رأسهم أحمد لطفي السيد الذي كان يُلَقَّب بأستاذ الجيل، والذي نشر في صحيفة "الجريدة" سلسلة من المقالات عام ١٩١٣م، اعترف فيها أن العربية خصبة في المعاني والمسميات القديمة، لكنها فقيرة ومجدبة في المعاني والمصطلحات الحديثة، ومعاجم اللغة العربية ثرية في مادة الحياة البدوية، فقيرة في مادة الحياة الحضرية٢٦، وهذا أدعى إلى هجرها واستبدالها بالعامية التي تشبعت بالمصطلحات التي تعبّر عن المدنية الحديثة حتى ولو كانت باللغة الأجنبية.

وسخر من المصطلحات العربية التي وضعها اللغويون للمعاني والأشياء المستحدثة، واعتبر ذلك تكلفا وتحميلا للعامة فوق طاقتها بعد أن دخلت الكلمات الأجنبية إلى نسيج لغتها واعتادت عليها: "ومن الظلم أن نكلف الجمهور بأن يعرف لكل مسمى من الأسماء الجديدة الكثيرة اسمين اثنين أحدهما ضروري لفهم خطاب المشافهة والثاني لفهم الكتابة"٢٧، وعلَّل رفضه لهذه الجهود اللغوية بأنها عامل آخر من عوامل توسيع الهوة بين لغة الكتابة ولغة الكلام، ومسبِّبٌ جديد من مسبّبات التأخر في اللحاق بركب المدنية، والأحسن أن نعمل على أن نرفع لغة العامة إلى الاستعمال الكتابي، وننزل بالضروري من لغة الكتابة إلى ميدان التخاطب والتعامل: "إننا لو اخترعنا أسماء للمسميات

الجديدة لنستعملها في الكتابة وحدها من غير أن تدخل في أحاديث العوام، ولا في أحاديث الخاصة أنفسهم، لكنا عاملين بذلك على توسيع الفرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام، وذلك مُؤَخّر للغة، مؤخّر للبيان والفصاحة، ومؤخر للتقدم من جميع الوجوه"٢٨.

وهذا ما دفعه إلى الدعوة إلى التسامح في استخدام الأسماء والمصطلحات الأجنبية المتداولة في لغة الحياة اليومية، وعدم ترجمتها بل الاكتفاء بتعريبها فقط، فنقول مثلا بسكليت ولا نقول دراجة، ونقول جاكيتة وأوتوموبيل وبنطلون، ونصح المترجمين ألا يحاولوا إيجاد اسم للتلفون والفونوجراف والتلغراف. وهو يرى أن العوام يَملكون بالوراثة سر اللغة، ويصرِّفون البيان فيها تصريفًا حيًّا مألوفًا، وكثير من أساليبهم حَسن جميل، وأن العامية قد اشتدَّ ساعدها، وأصبحت منافسًا قويًّا للغة الفصحى؛ فهي لغة المحادثة بين الخاصة والعامة، وتكاد تكون لغة المرافعات في المحاكم، وهي اللغة المفضَّلة للمسرح عند الخواص في همومهم والعوام٢٩.

وتزامنت هذه الدعوة مع اشتداد تيار القومية المصرية التي بلغت أوجها بعد ثورة ١٩١٩م، وظهر شعار مصر للمصريين، وصحبه مصطلح تمصير اللغة وتمصير الفن وتمصير الأدب، وتمَّ الترويج لها باسم الإصلاح والتجديد في اللغة العربية وآدابها، وكان أكثر الذين أيدوا أحمد لطفي السيد من الأدباء والنقاد الشباب الذين ركبوا موجة القومية ويأتي على رأسهم محمد تيمور الذي طبق فكرة كتابة الأدب بالعامية تطبيقا فعليا٣٠. وبرز من بينهم سلامة موسى الذي طعن في الأدب العربي القديم ودعا إلى هجره وقطع الصلة به لأنه أدب الملوك والأمراء، وأدب المنازعات الحربية، واللذة الجنسية، وأدب الاستعارة والتورية والبهارج والمحسنات:"يجب أن يموت هذا الأدب الملوكي، هذا الأدب الذي ينأى عن إحساس العصر ووجدان الشعب، ويخلو من الأهداف الإنسانية. يجب أن يكون للأدب دستور جديد بحيث يحترم الشعب.. الشعب أولا والشعب أخيرا، والإنسانية في كل زمان ومكان"٣١.

وقد سرت عدوى هذه الدعوة حتى وصلت إلى مجمع اللغة العربية الذي كان يعدُّ حصنا من الحصون التي تحمي العربية وتحافظ عليها، فقد تقدم أحد أعضائه وهو عبد العزيز فهمي في جلسة ٠٣ مايو ١٩٤٣م باقتراح استبدال الفصحى بالعامية، والحروف العربية بالحروف اللاتينية لتجاوز المشقة التي تصاحب تعليمها وتعلُّمها، وقال: "إن أهل اللغة العربية مُسْتَكرهون على أن تكون العربية الفصحى هي لغة الكتابة عند الجميع ... وهذا الاستكراه الذي يُوجِبُ على الناس تعلم العربية الفصحى كيما تصح قراءتهم وكتابتهم هو في ذاته محنة حائقة بأهل العربية، إنه طغيان وبغي لأنه تكليف للناس بما فوق طاقتهم"٣٢، وهو يستغرب عدم التخلي عن الفصحى واستبدالها بالعامية كما هو الحال عند الأوروبيين، الأمر الذي جعل أهل اللغة العربية من أتعس خلق الله في الحياة٣٣.

وشهدت البلدان العربية دعوات مماثلة، وإن لم تكن بالقوة التي عرفتها الساحة المصرية، حيث دعا الخوري مارون غصن اللبناني إلى تبنّي العامية وضمن دعوته في مؤلف أسماه "بستان السلوى" ونشره عام ١٩١١م، وفي عام ١٩٢٤م صدر له كتاب "درس ومطالعة" تحدث فيه عن ضرورة استبعاد الفصحى وتهذيب العامية لتكون لغة الكتابة، وفي عام ١٩٢٦م أصدر كتاب "حياة اللغة وموتها" وفيه تحدث عن القانون الذي يحكم حياة اللغات وتنبأ فيه بموت الفصحى واختفائها بناءً على الفرضية التي تقول أن كل لغة سائرة إلى الفناء وقياسا على ما حصل لليونانية واللاتينية٣٤، وتابعه في ذلك سعيد عقل الذي دافع عن القومية اللبنانية ودعا إلى عودة لبنان إلى الفينيقية، واستبعاد العربية واستبدال حروفها بحروف جديدة سماها الحرف اللبناني الجديد ويتكون من ٣٧ حرفا لاتينيا وقال: "من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن"٣٥، وأنيس فريحة أستاذ اللغات السامية بالجامعة الأمريكية الذي انصب اهتمامه على الدعوة إلى تبنّي العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية، وألف عام ١٩٤٧م "معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية"، وفي عام ١٩٥٢م نشر كتاب "تبسيط قواعد اللغة العربية"، وفي عام ١٩٥٥م نشر مقالا بعنوان "هذا الصرف وهذا النحو..أما لهذا الليل من آخر؟" وفيه تمنى أن يرى حاكما عسكريا يفرض العامية على العرب٣٦، وأنستاس الكرملي وإسكندر معلوف وجميل صدقي الزهاوي من العراق، والذي كتب مقالا بعنوان "لغة الكتابة ووجوب اتخاذها باللغة المحكية" نشره في مجلة المؤيد بتاريخ ٠٩ أغسطس ١٩١٠م قال فيه: " إني فتشت طويلاً عن انحطاط المسلمين فلم أجد غير سببين، أولهما الحجاب الذي عددت في مقالاتي الأولى مضاره لو كانت هناك آذان واعية، والثاني: هو كون المسلمين ولا سيما العرب منهم يكتبون غير اللغة التي يحكونها"٣٧وغيرهم.

إن هذه الهجمة الشرسة التي شهدتها البلدان العربية بنسب متفاوتة كانت مدعومة بقوة من القوى الأوروبية التي كانت تتوجس خوفا من بقاء اللغة العربية كرابط حضاري متين يشد الشعوب العربية والإسلامية إلى بعضها بعضا على الرغم من تمزقها، وكان واضحا جدا

من تسلسل أحداثها أنها كانت منظمة ومدروسة بدقة ولم تكن عملا عشوائيا ولا دعوة ارتجالية، وأن تبنّي المثقفين العرب لها كان امتدادا لهذا المخطط في مصر ولبنان والعراق وغيرها، كما تجدر الإشارة إلى أن مضامين هذه الدعوة قد قوبلت بالرفض منذ مراحلها الأولى، وقد تصدت لها - على مر السنين - أعداد لا تحصى من العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء الذين رأوا فيها مخايل مشروع مشبوه يرمي إلى تمزيق أوصال الأمة، وتغييب تاريخها، ومسخ هويتها، وتدجينها لتصبح تابعا ذليلا للنموذج الغربي أمثال عبد الرحمن البرقوقي ومصطفى صادق الرافعي ومحمد كرد علي وإسعاف النشاشيبي ومحمود محمد شاكر، وغيرهم كثير: "وإذا كان أغلب هذه المعارك قد دارت في صحف مصر فإن كتاب العالم العربي المبرزون قد اشتركوا فيها. وإذا كانت تمثل قطاعًا من الحياة الفكرية في مصر فإنها في الحق صورة متكاملة صادقة لجميع المعارك الفكرية التي دارت في العالم العربي كله.فقد كانت خطط التغريب متشابهة ودعوته متماثلة بين الاستعمارين الفرنسي والبريطاني اللذين سيطرا على العالم العربي في هذه الفترة"٣٨.

وعلى الرغم من كل ما كتبه العلماء والخبراء والدارسون والمتخصصون في تهافت هذه الدعوة، وسقوط حجج أصحابها الواهية إلا أن المنادين بها الدعوة لا يزالون يجهرون بدعوتهم على منابر الإعلام بكل أنواعه، ويلقون دعما قويا من جهات نافذة في الغرب، ويشكلون جماعات ضغط على حكوماتهم وبلدانهم، ويستدرجون إليهم جموعا من الغافلين أو الماكرين أو الانتهازيين، ويشوّشون على المطالبين بتعميم العربية الفصحى وإصلاحها، ويعرقلون مسيرتهم، ويشككون في نواياهم ووطنيتهم، ويثيرون حولهم الشبهات.

ثالثا: الدعوة إلى العامية في الجزائر إبان العهد الاستعماري

لا تنفصل الدعوة إلى العامية في الجزائر ودول المغرب العربي عن نظيرتها في المشرق العربي، إذ كانت تنبع جميعا من مصدر واحد هو أوروبا الاستعمارية التي اتخذت من الاهتمام بالعاميات العربية وسيلة لإحكام سيطرتها على البلاد بالقوة العسكرية وإحكام السيطرة على المجتمعات بالحركات التنصيرية والتغريبية. بل إن بعض الباحثين يؤكد أن الدعوة إلى العامية بدأت في بلدان المغرب العربي قبل بلدان المشرق بوقت طويل، حيث تزامن ذلك مع سقوط الأندلس: "وتنامي الرغبة لدى المنصرين في تنفيذ مشروع الاسترداد وتنصير المسلمين وإلحاقهم بالعالم المسيحي"٣٩.

لذلك شهدت المنطقة المغاربية - مع سنوات الاحتلال الأولى - حركة بحث دؤوبة لتدوين اللهجات العامية العربية والأمازيغية على السواء طيلة العهد الاستعماري، ورصدت الحكومة الاستعمارية الفرنسية إمكانات بشرية ومادية كبيرة لتمويل هذا المشروع في مقابل الاجتهاد في نشر الفرنسية وتدعيم وجودها وفرضها في كل القطاعات الحيوية، وهو ما عُرِف بالفرانكفونية التي تعد سياسة لغوية متجذرة بتجذر الاستعمار الذي انطلقت جحافله في القرن التاسع عشر، فواكبته وسارت في ركابه منذ خطواته الأولى، بل كانت أمامه وفي طليعته تجره وتمهد طريقه وترتاد مسالكه وتفسح له المجالات لتهديد الأمن اللغوي والثقافي للشعوب واحتواء شخصيتها وطمس معالم هويتها.

وألقت مسؤولية البحث في العاميات على المستشرقين والباحثين في التاريخ واللغات والأنثروبولوجيا ليزودوها بأنجع الأساليب لمحاصرة العربية الفصحى وتهميشها، والتمكين للعامية في الإطار الضيق الذي تتيحه لها في مدارسها، حتى تتشرب أجيال المغرب العربي الفرنسية على أنها لغة الحضارة والتقدم والعلم والقوة، وينشأ أبناؤها محتقرين للغة العربية التي لا تسمن ولا تغني من جوع في عالم يسيطر عليه الأقوياء.

وكانت سياستها تُجاهَ اللغة العربية الفصحى واضحةً لا لبس فيها: "وهي محاربتها بكل وسيلة ممكنة وقطعُ الصلة بكل ما يؤدي إلى نشرها وتعلُّمها، لأن الهدف المرسوم هو تطويرُ أبناء المغرب العربي والبربر منهم بصفة خاصة خارجَ إطار هذه اللغة والانتماء للحضارة العربية الإسلامية"٤٠. وقد طبقت أبجديات هذه السياسة على بلدان المغرب العربي الثلاثة (تونس، الجزائر، المغرب) التي عرفت واقعا متشابها لتحقيق هدف واحد، حيث تظهر كثير من الدراسات أن مشكلات الهوية واللغة في المغرب العربي متشابهة جدا إلى حد التطابق أحيانا، وأدارت فيها جميعا صراعا لغويا ماكرا عبر وضع العربية وحدها في جانب، ووضع الفرنسية والعامية والأمازيغية مجتمعة في جانب مقابل بحيث تُوضَعُ الشعوب أمام ثلاث خيارات جائرة: "أن يتولى الشباب المتعلم تيسير الفصحى وتقريبها للناس، وهذه عملية تبدو مستحيلة، أو تعمَّم الدارجة التي يفهمها الجميع، أو يتم الاستغناء عنهما معا لتعتمد الفرنسية بدلا منهما"٤١.

كما خطط لضمان نجاح مشروعه لعَزل المغرب العربي عن المشرق لغةً وثقافةً وحضارةً وانتماءً، تمهيداً لفصله حضارياً وتاريخياً وعرقياً بعد أن تمَّ فصلُه عنه جغرافياً وسياسياً، والتمهيد لإلحاقه بالغرب ثقافيا: "وقد سُخِّرت من أجل هذه الغاية كلُّ الإمكانيات المادية والبشرية، وطاقاتُ العلماء والمستشرقين وخبراءُ التاريخ واللغات والديانات والأنتروبولوجيا والحفريات. وزُيِّفت في سبيل ذلك كثيرٌ من الأفكار وقُدِّمت على أنها حقائق علمية ومُسلَّمات وما هي سوى أوهام ومزاعمُ سُرعان ما انكشفَ أمرُها وتبينَّ ما وراءها من مَكر وخداع. من ذلك – على سبيل المثال – محاولة نفي كلِّ صلة عِرقية تربطُ أبناء المشرق بالمغرب، والسَّعي بكل الوسائل لإثبات أية أطروحة مُعاكسة .٤٢وسنحاول فيما يلي تتبع مسيرة الدعوة إلى العامية في الشمال الإفريقي أثناء العهد الاستعماري.

ففي تونس التي فرضت عليها الحماية الفرنسية بتاريخ ١٢ مايو ١٨٨١م لم تعرف الدعوة إلى العامية فيها حركة نشيطة مقارنة بالجزائر والمغرب، حيث ركز الاستعمار الفرنسي على الاستيلاء على الأراضي الخصبة وتسليمها للمعمرين الأوروبيين، والسيطرة على القطاع الاقتصادي وتنظيم حركته بما يتناسب مع مصالح الشركات الأوروبية، لذلك عرفت اللغة العربية في تونس خلال حقبة الحماية حركة إصلاحات واسعة، وراج فيها سوق الكتاب، وتأسست فيها مجموعة من الجمعيات التي عملت على تكوين مجتمع يهدف إلى ترقية تعليم الأهالي، ويرمي إلى يقظة المسلمين الفكرية والأخلاقية، وأدمجت العلوم العصرية المستوحاة من المناهج التعليمية الفرنسية في برامجها لتحقيق معدل مقبول من الانفتاح على العصر في إطار الهوية العربية الإسلامية٤٣، واعتبرت السلطات الاستعمارية الفرنسية هذا التوجّه كفيلا بتقريب التونسيين من الثقافة الفرنسية وتجنيبها مغبة مقاومة نفوذها في البلاد.

وفي المغرب الأقصى الذي فرضت عليه الحماية الفرنسية بتاريخ ٣٠ مارس ١٩١٢م عَمِلتْ الإدارة الاستعمارية - منذ الوهلة الأولى - على إغلاق كتاتيب تعليم القرآن ومُحاربة معلِّميه: "والتقليص من حصص تعليم العربية في المدارس الرسمية المزدوجة، وإحداث مدارس فرنسية خالصة تابعة للبعثة التعليمية الفرنسية وخاضعة لوزارة التعليم الفرنسية مباشرة، أو مدارس كاثوليكية تحت مُسمَّيات واضحة أو مُتستِّرة، ومدارس أخرى فرنسية بربرية، كما عَمِلَت على إحداث معهد عالٍ لتعليم الدارجة المغربية لتخريج الأطر والمساعدين القادرين على مخاطبة المواطنين بالدارجة عوض الفصحى"٤٤.

وأفصح الساسة الفرنسيون عن أهدافهم حينما صرح المستشرق الفرنسي جورج كولان Georges Colin (١٨٩٣ - ١٩٧٧م) أن التعليم بالفصحى أمر غير وارد، وأن المغاربة مخيّرون بين أمرين: إما أن يتخذوا العامية لغة للتعليم والثقافة، أو يستبدلوها بالفرنسية٤٥. حيث تم اعتماد الفرنسية كلغة رسمية وحوصرت العربية في القضاء الشرعي والتعليم الديني، وكانت لدى طلبة المدارس الفرنسية ساعتان أسبوعيا لتدريس قواعد العربية: "بدون كتب مدرسية، وبغير اختبارات، وبدون رقابة أو تفتيش أو توجيه، مما جعل حصصها، حصص ملل وعياء. وأعطى للتلاميذ، صورة مشوهة عن العربية وثقافتها، وغرس فيهم رد فعل سلبي عن كل ما هو عربي"٤٦. ومارس الاستعمار - إلى جانب ذلك - سياسات تعسفية متوحشة لتحطيم البنى الاجتماعية ومنظومة القيم الأخلاقية التي تمسك بها الشعب المغربي قروناً عديدة بهدف تجريد الأهالي من ثوابتهم الحضارية التي تقف حجر عثرة في طريقه.لكن الحركة الوطنية قاومت سياسة الفَرْنَسَة وأسست المدارس الحرة، وخففت قليلا من آثارها في أبناء المجتمع المغربي، وحافظت بجهد جهيد على أهم مقوماته الوطنية.

أما الجزائر فإنها تمثل في هذا المضمار حالة خاصة لاختلاف ظروفها عن جارتيها، فقد خضعت لاستعمار استيطاني في وقت مبكر جدا عام ١٨٣٠م، وتم احتلالها أولا احتلالا عسكريا تاما قبل أن يتم فرض الحماية على المغرب وتونس. ومرت عملية الدعوة إلى العامية فيها بثلاث مراحل. بدأت المرحلة الأولى التي يمكن الاصطلاح على تسميتها بمرحلة البدايات، مع الغزو العسكري الفرنسي، حيث وفدت مع جيش الاحتلال مجموعة من المستشرقين الذين تكوَّنوا في المعاهد التي تدرِّس اللغات العامية العربية ليكونوا حلقة الوصل بين الغزاة وأهل البلاد، لما لهم من خبرة في هذا المجال، ثم أشرفوا على تكوين مجموعة من المترجمين من أبناء الجزائر مع الإصرار على أن تكون الترجمة من الفرنسية إلى العامية السائدة بين أفراد المجتمع وليس إلى العربية الفصحى التي كانت اللغة الرسمية في الجزائر في جميع مرافق الدولة ومؤسسات التعليم: "مما يعني أن نية استبعاد الفصحى كانت مبيَّتة من قبل لأنها لغة القرآن، فكان لا بد من استهدافها أولا"٤٧، وأن تشجيع العامية على حساب الفصحى قد بدأ مع أيام الاحتلال الأولى كهدف مقصود لذاته.

ثم قاد الغزاة حملة واسعة لهدم المعاهد والمدارس والزوايا والكتاتيب، وإغلاق ما بقي منها لحرمان الشعب من لغته ودينه، وأسس

مدارس فرنسية خاصة بالأهالي لخدمة المدرسة الاستعمارية وتغييب الثقافة العربية الإسلامية وتجفيف منابعها. وأثناء هذه الفترة التي أعقبت الاحتلال تكوّنت (المدرسة الجزائرية في الاستشراق الفرنسي) التي وجّهت جهودها لتكوين عدد من المستشرقين وتوزيعهم في مجال التعليم والوظائف العامة، وتوجيه النابهين منهم لدراسة تعدد اللهجات في مختلف مناطق الجزائر، فنشطوا في البحث عن أصولها، وعكفوا على إحيائها وبعثها والترويج لها بتصنيف الكتب عنها والتعريف بها تمهيدا لاعتمادها كلغة للتعامل والتواصل والقضاء على العربية الفصحى التي كانت تمثل تهديدا مباشرا للوجود الاستعماري لقدرتها الفائقة على تحقيق الوحدة الفكرية والاجتماعية بين الجزائريين بعضهم بعضا، وبينهم وبين إخوانهم في إفريقيا وباقي الدول العربية والإسلامية. ويمكننا تحديد نهاية هذه المرحلة بنهاية العقد الثامن من القرن التاسع عشر الميلادي عندما تمكنت جيوش الاحتلال من القضاء على ثورات المقاومة الشعبية واستتب لها الأمر، وبسطت سيطرتها على كامل التراب الوطني.وكانت السمة البارزة لهذه المرحلة هي الاعتماد على الآلة العسكرية لفرض الأمر الواقع.

وبعد فشل ثورات المقاومة والانتفاضات الشعبية التي اشتعلت في جميع أنحاء الوطن لمقاومة الغزو الفرنسي مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بدأت المرحلة الثانية من المشروع الثقافي الفرنسي القائم على محاربة الإسلام ونشر المسيحية، ومحاربة العربية في مقابل نشر الفرْنَسَة وتشجيع اللهجات العامية والأمازيغية، والذي جاء مكمِّلا للمرحلة الأولى، بعد أن اقتنعت السلطات الاستعمارية أن احتواء الجزائريين ثقافيا وحضاريا هو السبيل الوحيد لضمان بقائها في البلاد وضمان عدم اشتعال ثورات المقاومة ضدها من جديد، وقد اصطلحنا على تسميتها بمرحلة التكَوُّن، وفيها تولىَّ المستشرقون الفرنسيون بأنفسهم مهمة التكريس للعامية على حساب الفصحى، وأعطوها طابعا علميا حينما ألفوا فيها البحوث والدراسات ووضعوا المعاجم، وخطط التدريس، وأسسوا المدارس ومارسوا فيها مهنة تعليم اللهجات العامية، وتمّ تحديد الهدف من دراسة العاميات الجزائرية بدقة، حيث اتجهت الجهود إلى :"تطوير الدراسات وتوسيعها للوصول إلى غرض اجتماعي وسياسي، وهو حصر اللهجات ومعرفة الأصول اللغوية والعرقية للسكان، ومدى تأثير لهجة ما على ما جاورها، وكيف تنقلت القبائل عبر العصور"٤٨. وعلى أساس هذه الإستراتيجية تم تقسيم الجزائر إلى أربعة مناطق كبرى: الشرق والغرب والوسط والجنوب، وتوزع المستشرقون المهام: "وأخذ كل مستشرق يدرس لهجة أو أكثر في المدن والأرياف، فكان يذهب لزيارة المكان ويتصل بأهله، وربما يستعين بتلاميذه الجزائريين في الناحية، ويأخذ في جمع المادة والمقارنة ثم يكتب دراسة لينشرها مُسَلْسَلَة في المجلات ثم كتابا في المطبعة"٤٩.

ولعل من أهم إنجازات المدرسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر إنشاء كرسي للعربية منذ السنوات الأولى للاحتلال، والذي تحوَّل عام ١٨٨٢م إلى (المدرسة العليا للآداب) في الجزائر العاصمة، وتأسس إلى جانبه كرسي تعليم العربية الثاني في مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري، وكرسي ثالث في مدينة وهران بالغرب الجزائري عام ١٨٤٦م٥٠: "وقد تولّى الفرنسيون أنفسهم في البداية تدريس اللغة العربية الدارجة، وشاركهم بعد ذلك عدد آخر من المستشرقين الذين انتشروا في غرب البلاد وشرقها، ومنهم شيربونو Auguste Cherbonneau في قسنطينة، وماشويل في وهرانLouis Machuel "٥١، وقد ألف هؤلاء المستشرقون مجموعة من الكتب التعليمية بالعربية الدارجة ، وهي كتب تُقْرَأُ من اليسار إلى اليمين، كما ألفوا قواميس في الموضوع نفسه٥٢. يقول رينيه باسيه René Basset:"ظهرت منذ الاحتلال أكوام من المعاجم والقواميس وكتب المحادثة، ومجموعات الرسائل بهدف تعليم العربية الدارجة، إنها مكتبة كاملة"٥٣.

ومن أوائل الكتب التي اهتمت بتدوين العامية الجزائرية وتكييفها لتكون مادة تدريس بدل الفصحى نذكر كتاب المستشرق الطبيب برون Perron(ت ١٨٧٦م) الذي سماه "العربية العامية في الجزائر" ونشره عام ١٨٣٢م، ثم أصدر المستشرق برينيه Bresnier (ت ١٨٦٩م) عام ١٨٤٦م كتابا في الموضوع نفسه وسماه "منتخبات أدبية باللغة العربية العامية"٥٤، وقد وفد صاحبه إلى الجزائر عام ١٨٣٦م وتولّى أمر إحدى المدارس العربية التي أسستها إدارة الاحتلال بالجزائر العاصمة وظل يعلم فيها العربية العامية لمدة ٣٣ سنة٥٥، وهذا الاهتمام المبكر بالعامية في الجزائر يثبت أن الدعوة إليها قد بدأت فيها قبل أن تنطلق في المشرق بحوالي نصف قرن.

ولعل الكتاب الذي تزامن صدوره مع الكتب الداعية إلى العامية في مصر هو "المعجم العلمي العربي الفرنسي" الذي جمع فيه المستشرق بوسيه Beaussier، A. (ت ١٨٧٣م) التعابير اللغوية المستعملة في لهجات شمال إفريقيا، وقد طبع بالجزائر عام ١٨٨٧م، ووصفه المستشرق وليم مارسيه بقوله: "يمكن اعتباره أهم عمل للمدرسة الاستعرابية الجزائرية القديمة"٥٦.

كما اهتم المستشرق شيربونو Auguste Cherbonneau Jacques (ت ١٨٨٢م) بالعامية الجزائرية، وكان نشاطه الفكري موجّها لهدف استعماري واضح وهو تسهيل إدماج الجزائريين في الكيان الفرنسي فقد:"خصّص كلّ نشاطه العلمي المتواضع والخفي تقريبا للمهمة المفيدة، والتي تتمثل في صهر العنصرين العربي والفرنسي في الجزائر عن طريق التعليم"٥٧، ويؤكد أحد الباحثين أن جهوده في تعليم العامية ونشرها في الجزائر يدخل ضمن هذا الهدف الكبير الذي جند له كل إمكاناته الفكرية: "ومن الممكن اعتبار شربونو Cherbonneau ذا خبرة بالجزائر، إذ كان عام ١٨٥٥م قد أمضى تسع سنوات بها، لاسيما وأن موضوع اللّهجات كان أحد همومه، ذلك أنّه تعلم الفصحى، ولكنه اضطر إلى الحديث باللّسان المحلي الدارج، لسان المحيط الجزائري، وهو نفسه الذي ذهب إلى أنّ لغة إفريقيا) الجزائر(هي اللغة العربية التي انصهر فيها العرب والبربر والأتراك انصهارا تدريجيا"٥٨. وتولى إدارة المدرسة العربية التي أسستها إدارة الاحتلال في قسنطينة عام ١٨٤٦م، ومن أشهر مؤلفاته في العامية معجم فرنسي عربي على لغة أهل الجزائر طبع في باريس سنة ١٨٧٦م، وكتاب "المخاطبات فيما يحتاجه العرب من الولاة" مجموع مخاطبات باصطلاح أهل الجزائر.

وكان للمستشرق الفرنسي إميل ماسكراي Masqueray Emile (ت ١٨٩٤م) كذلك إسهام في هذا المجال، فقد شغل منصب مدير مدرسة الآداب العليا في الجزائر التي تحولت فيما بعد إلى كلية الآداب، وكلفته سلطات الاحتلال بالقيام بمهمة استكشافية في مواطن البربر بجبال الأوراس ووادي ميزاب قبل أن تبسط سيطرتها العسكرية عليهما، وقد ألف ـ عقب انتهائه من هذه المهمة ـ عدة دراسات عن لهجات البربر ولهجات الطوارق في الجنوب الجزائري٥٩.وألف المستشرق لويس ماشويل Louis Machuel (ت ١٩٢٢م) مدير مدرسة وهران معجما عربيا فرنسيا للهجات العامية الجزائرية أصدره على دفعات سنة ١٨٧٧م ثم ١٨٨١م ثم ١٩١٧م.

ثم جاءت المرحلة الثالثة والتي يمكن الاصطلاح على تسميتها بمرحلة النضج، وأبرز ما ميَّزها تحوُّل المدرسة العليا للآداب إلى كلية الآداب عام ١٩٠٩م والتي تأسست على إثرها جامعة الجزائر، وفيها لقيت دراسة اللهجات العامية الجزائرية اهتماما خاصا، حيث تفرغ لها مجموعة من المستشرقين وتخصصوا فيها وأعطوها طابعا أكاديميا، وامتد نشاطهم إلى قرابة نصف قرن، ولم يتوقف إلا مع حصول الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م. ومن أبرز أعلامها المستشرق إدموند دوتيه Doutté Edmond (ت ١٩٢٦م) الذي يعد قائدا فكريا هاما في هذا الميدان، حيث ترأس نخبة من الأكاديميين الفرنسيين المنخرطين في المشروع الثقافي الفرنسي انخراطا تاما ووجَّهَ جهودهم الفكرية إلى: "دراسة التراث الشعبي، والدين الشعبي٦٠، وعلم اللهجات٦١، وكان يلقي بنفسه دروس العامية العربية في مدرسة الآداب بالجزائر، وكتب عدة مقالات عن اللهجات العامية في شمال إفريقيا.

كما نشط في إطارها المستشرق جورج دلفين Georges Delphin(ت ١٩٢٢م) الذي تخصص في دراسة اللهجات العامية وتدريسها، والذي شغل منصب أستاذ للعربية العامية في مدرسة وهران، ثم عُيّن مديرا للمدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة، ثم ناظرا للمدارس الجزائرية التي أسستها السلطات الفرنسية، وآخر منصب تقلده هو رئاسة كلية الآداب بجامعة الجزائر. وقد ألف عدة كتب مدرسية لتسهيل دراسة العامية، ومن آثاره أيضا "جامع اللطائف وكنز الخرائف" لتعليم العربية للعوام، طبع بباريس سنة ١٨٩١م. وكان للمستشرق رينيه باسيه (ت ١٩٢٤م) René Basset دوره في دعم اللهجات العامية، حيث أسند إليه كرسي العربية في مدرسة الآداب العالية بالجزائر، وعندما تحولت هذه المدرسة إلى كلية عام ١٩٠٩م انتُخِب عميدا لها، وأنجز دراسات عديدة عن اللهجات البربرية في الجزائر.

ودرَّس في هذه الكلية أيضا المستشرق إدموند فانيان٦٢ Fagnan Edmond(ت ١٩٣١م) الذي خصص جزءً من مؤلفاته للهجات العامية فكتب عن اللهجات العربية المنطوقة في تلمسان عام ١٩٠٢م، وعن اللهجة العربية لأولاد إبراهيم بسعيدة عام ١٩٠٨م.والمستشرق لوي مرسييه Mercier Louis(ت ١٩٥٦م) الذي شارك بمقالة عن العربية العامية في جنوب وهران خلال مؤتمر المستشرقين عام ١٩٠٥م٦٣.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن نسبة كبيرة من المستشرقين الفرنسيين الذين كانوا ينشطون في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين وحتى الاستقلال الوطني كانوا مهتمين بالعامية اهتماما خاصا، سواء على مستوى جامعة الجزائر أم مدرستي قسنطينة ووهران، إما بتأليف الكتب والمعاجم أو بممارستها عمليا على كافة الأصعدة. وقد شاركهم في ذلك بعض الجزائريين القليلين الذين أسعفهم الحظ لمتابعة دراساتهم الجامعية، وساروا في الاتجاه الذي رسمه المستشرقون الفرنسيون من العناية بتدوين العامية

ودراستها وتدريسها، ومنهم محمد بن أبي شنب (ت ١٩٢٩م) والذي نقح معجم المستشرق بوسيه الفرنسي العربي وزاد فيه بعض المواد، كما ألف كتاب الأمثال العامية السائرة بالمغرب العربي بالأقطار الثلاثة: تونس والجزائر والمغرب، وشرحها بالفرنسية في ثلاثة أجزاء، وطُبِع بباريس عام ١٩٠٧م، وأنجز بحثا تاريخيا في بيان أصل كلمة (شاشية) ٦٤ العامية، ونشره بالفرنسية عام ١٩٠٧م٦٥.

وقد اتخذ تعليم العامية في المدارس الفرنسية أثناء النصف الأول من القرن العشرين اتجاهين رئيسيين، يتمثل الأول في إعداد الإطارات العلمية والسياسية والإدارية التي تحتاجها سلطات الاحتلال في الحفاظ على نفوذها في الجزائر وتعزيز مواقعها وإعداد الخطط الكفيلة بتسيير مستعمراتها على أكمل وجه، وهو موجَّهٌ للنابهين من أبناء فرنسا وبعض الأوروبيين، ويتمثل الاتجاه الثاني في تدريس العامية لأبناء الجزائر الذين التحقوا بالمدارس الفرنسية، حيث أعطيت الأولوية فيها للغة الفرنسية باعتبارها اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد مع تدريس العامية إلى جانبها خلال ساعات قليلة جدا في الأسبوع بلغة عامية ركيكة ومواضيع محلية تافهة تعتمد على الحكايات الخرافية والأساطير والأمثال الشعبية والقصص المُسِفَّة المغرقة في السطحية والابتذال والتي تهدف جميعا إلى تصوير السكان الأصليين في شكل كاريكاتوري مضحك ومثير للشفقة، وإلصاق جميع المعايب والنقائص والمثالب بهم، وجعلهم مثالا حيا للتخلف.وفيما يلي نماذج من هذه الوثائق التعليمية التي كانت سائدة آنذاك:

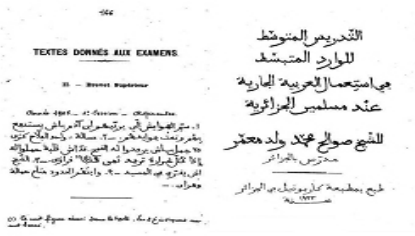

وبالموازاة مع هذا النشاط الاستشراقي الكبير في خدمة العامية، كان هناك مخطط استعماري صارم لمحاربة العربية الفصحى والتضييق عليها ومحاصرتها في أضيق الحدود. وقد ازدادت شراسة هذه الحرب في سنوات الثلاثين من القرن العشرين بعد أن احتفلت فرنسا بالعيد المئوي الأول لاحتلال الجزائر وأعلن ساستها عن تشييع جنازة الإسلام والعربية فيها إلى الأبد٦٦، والذي أحدث ردة فعل عنيفة تمثلت في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣١م والتي أدركت بعمق مخاطر الفرنَسَة والعامية على العربية فرفعت شعار "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"، وعملت على تثبيت الحرف العربي في الجزائر وترقيته بما أسسته من مدارس حرة ومساجد ونوادي ومجلات وجرائد، وما بذله رجالها من جهود حثيثة لنشر الوعي والعلم بين مختلف طبقات المجتمع.

وقد استفزت هذه النهضة اللغوية حكومة الاحتلال فأصدر وزير الداخلية فيها شوطان Chautemps عام ١٩٣٨م مرسوما اعتبر بموجبه اللغة العربية لغة أجنبية، ووصف تعليمها لأبناء الجزائر بأنه: "محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية"٦٧، وأُغلِقت. على إثر صدور هذا المرسوم - المدارس الحرة، وسُجِن العلماء، وحوكم المعلمون الأحرار، وارتفعت أصوات الاندماجيين الذين ينادون بالتخلي عن الهوية العربية الإسلامية والاندماج في الدولة الفرنسية للحصول على الحقوق، مع التأكيد على تخلف العربية وقصورها عن استيعاب مظاهر التطور الحديث، ووصفها المستشرق جوزيف ديبارمي بأنها (لغة قريش القديمة)٦٨، وادعى جان سرفيه(Jan Servais) أن العامية الجزائرية خليط من الفينيقية ولا علاقة لها بالإسلام والمسلمين٦٩. ونادى وزير العدل الفرنسي وغيره من غلاة المستوطنين باستئصال العربية من الجزائر: "وترجمة القرآن إلى الفرنسية وفرضه على الشعب، وحذف كل ما يمت بصلة إلى النخوة والقومية فيه، ومنع المسلمين من تعلم العربية، وإغلاق حدود تونس حتى لا يتسرب إليها الراغبون في التعلم بجامع الزيتونة"٧٠.فقد أدركت فرنسا بعد هذه الجهود الحثيثة في محاربة الفصحى أن قداستها ومحبتها لا زالت تسكن في أعماق كل جزائري مهما كان حظه من التعليم. يقول المستشرق فيليب مارسيه Philippe Marçais: "إن المتعلمين بالعربية في الجزائر قليلون جدا، وهم لا يتجاوزون عشرة آلاف، وليس لهم معرفة بالنصوص الصعبة، ولكنهم سواء كانوا متعلمين أو نصف متعلمين أو مبتدئين فإن لهم رغبة مشتركة ومخلصة، وأحيانا رغبة حادة في معرفة أكثر عمقا للعربية، والحصول من الفصحى على نصيب أوفر يستطيع أن يدغدغ عواطفهم، ويشرِّف هيبتهم كمسلمين"٧١.

وحصلت ردة فعل عكسية أحبطت المخططات الاستعمارية وسجلت إقبالا مشهودا لأبناء الجزائر على لغتهم العربية، وصفها المستشرق جوزيف ديبارمي بأنها ثورة لغوية، وعللها بقوله: "وهو أمر لا يحتاج إلى تفسير، ذلك أن المثقفين بالعربية أصبحوا يرفضون الدارجة والفلكلور والشعر الملحون باعتباره (كلام العوام)"٧٢، واستشهد لها بما يجري في المدارس الفرنسية المخصصة للأهالي بأن التلاميذ الجزائريين إذا طلب منهم المعلم أن يرددوا أن أجدادهم من بلاد الغال (les gaulois٧٣) يجيبونه: "بأن أجدادهم هم العرب المسلمون، وأنهم يتصلون بهم عن طريق اللغة العربية كما يتصلون بالرسول ﷺ عن طريق الشرق"٧٤.

ويؤكد أبو القاسم سعد الله هذه الحقيقة حينما يشير إلى أن: "إهمال الفصحى والعناية بالدارجة الذي بدأ مع الاحتلال قد تحوّل بعد مائة سنة إلى العكس على يد الشعوب المغاربية ، أي العناية بالفصحى وقلة الاهتمام بالدارجة، لأن الفصحى هي لغة الدين والتراث والقومية والاستقلال"٧٥، حيث نشطت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - والتي كان برنامجها ينص على أن تعليم اللغة العربية يمثل حجر الزاوية في وجودها - في إحياء اللغة العربية، وبذلت جهودا جبارة في تأسيس المدارس الحرة التي لا تخضع لإدارة الاحتلال لتعليمها، ونجحت في إنقاذ الآلاف من أبناء الجزائر من الأمية القسرية، وشحنتهم جميعا بمشاعر الاعتزاز باللغة العربية والدين الإسلامي والوطن الجزائري، وهي المقومات الثلاث التي عكفت فرنسا على مسخها وتشويهها طيلة عقود الاحتلال تمهيدا لمحوها كليا، وقد أسفرت هذه الحركة التعليمية التي تمت تحت وقع الاضطهاد والمطاردة والنفي والسجن عن تكوين قرابة ٤٠ ألفا من الكوادر التعليمية المشبعة بالثقافة العربية الأصيلة.

غير أن الضربات الموجعة التي تلقتها اللغة العربية طوال عقود الاحتلال، والسياسة الاستعمارية الإقصائية القائمة على التفقير والتجهيل، وقيام الثورة التحريرية التي كانت ذريعة لفرنسا لإيقاف حركة التعليم العربي الحر قد تركت آثارها المدمرة في وضعيتها التي كانت غداة الاستقلال في حالة يُرثى لها من الضعف، وندرة الإطارات الكفؤة: "لم تستطع لغة الاستعمار افتراس العربية افتراسا، وابتلاعها ابتلاعا نهائيا، لكنها مع الأسف استطاعت - بتوالي الضربات - إنهاك قواها، وتشكيك أهلها فيها، وإبعادها عن أهم المجالات

الحيوية الفاعلة"٧٦.

رابعا: الدعوة إلى العامية في شمال إفريقيا والجزائر بعد الاستقلال

وعندما ثارت شعوب المغرب العربي على الاحتلال الفرنسي، وقدمت الضحايا وقاست الأهوال، وأجبرت فرنسا على الانسحاب من أوطانها، لم تنعم ببركات استقلالها بسبب الآثار الاستعمارية التي تركتها فرنسا وراءها والتي يأتي على رأسها جيش من الإطارات ذات الاتجاه الفرانكوفوني المتشدد الذين توزعوا على كل القطاعات الحيوية في المجتمع وأمسكوا بزمام الأمور بيد من حديد حتى يضمنوا حماية اللغة الفرنسية وثقافتها في المحميات والمستعمرات الإفريقية.

ففي المغرب الذي حصل على استقلاله عام ١٩٥٦م، وطالب الشعب بعده بتعريب جميع مرافق الدولة وتعميم هذا التعريب وتوحيد لغة التعليم،مارست السلطات الفرنسية ضغطا قويا على أصحاب القرار في البلاد لتثبيت الوجود الفرنسي بها، وإعطاء اللغة الفرنسية صفة الشرعية والاستمرار في التربية والتعليم وتكوين الإطارات، وأوعزت إلى عملائها في مراكز القرار باختراق نظم التربية والتعليم، واستغلال كل الوسائل والأساليب لمنع قرار التعريب من أن يأخذ مساره الطبيعي في البلاد، ففرضت ازدواجية التعليم ضمن الاتفاقيات الموقعة غداة الاستقلال تحت اسم (تبادل الخبرات والمصالح) على أساس: " أن اللغة الفرنسية تمثل نموذجاً لسانياً كاملاً بذاته، قوامه التقنية والعلمية والعقلانية، وهو ما من شأنه أن يساهم في بناء المغرب الجديد... وهكذا تم تحويل المغرب تدريجياً بفضل سياسة ازدواجية اللغة إلى مغرب فرنكوفوني بعدما حُرِم أبناؤه من الازدهار والنمو في إطار ثقافتهم العربية وهويتهم الإسلامية"٧٧.

وتأسيسا على هذه الاتفاقيات عملت هذه السياسة على فَرْنَسَة اتجاهين متكاملين يمثلان صورة (المغرب المتفرنس) المستقل الذي يحلم الاستعمار الجديد بأن يحل محل (المغرب المفرنس) المحمي: "يتمثل الاتجاه الأول في مدارس البعثة الثقافية الفرنسية؛ حيث تجري عملية فرنسة أبناء الطبقة البورجوازية بمن فيهم أبناء الأعيان ذوي الحظوة في المجتمع، وإعدادهم لتحصيل الشهادات الكبرى، واستلام المناصب العليا في الإدارة المغربية، ويتمثل الاتجاه الثاني في مدارس التعليم الرسمي العمومي الخاصة بأبناء الشعب المغربي الذين تجري عملية فرنستهم بنسبة أقل؛ لأن دورهم في (المغرب المتفرنس) ينحصر في أن يكونوا أعواناً للرؤساء في المكاتب الإدارية، مساعدين في الخدمات العامة"٧٨.

ومثلما قيدت الاتفاقيات الثقافية (لتبادل الخبرات والمصالح) حركة التعريب في المغرب وأتاحت المجال للفرنسية لتحافظ على نفوذها السابق وتتمدد في الواقع، كذلك فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر حينما فرض عليها غداة الاستقلال أن تبقى الفرنسية لغة مستعملة في التعليم والإدارة إلى جانب العربية حتى تتمكن البلاد من قيادة مسيرة التنمية بالاستعانة بلغة قوية تربطها بالمدنية الحديثة وتزودها بما تحتاجه في عملية إعادة البناء. وكانت تلك حجة ماكرة لضرب العربية في الجزائر المستقلة، ومزاحمتها بالفرنسية على أيدي عملائها الذين تبوؤوا أعلى المناصب وأمسكوا بزمام الأمور، وكانت لهم أدوار مشهودة في محاربة قوانين التعريب وعرقلة تطبيقها، بل وتجميدها في أحيان كثيرة، والتشويش على دعاة التعريب والمدافعين عن العربية، واتهامهم في نياتهم وكفاءاتهم، وتهميشهم وإثارة الشبهات حول مطالبهم بتعميم استعمال العربية في جميع مرافق الدولة وفي المؤسسات التعليمية كمطلب شعبي لا يقبل التفاوض.

وقد شهدت الجزائر بعد الاستقلال صراعا عنيفا بين العربية التي كانت مطلب الأغلبية الساحقة من الشعب بغية استعادة هويته التي طمسها الاستعمار الفرنسي طيلة قرن ونصف قرن من الزمان وبين اللوبي الفرانكفوني الذي كان يمسك بدواليب الدولة ويصر على بقاء الفرنسية هي اللغة الأولى السائدة في البلاد. ويعد التيار الفرانكفوني هو الخليفة الطبيعي لحركة الاستشراق التي كانت تشرف على الدعوة إلى العامية خلال فترة الاحتلال. وقد كان الصراع بين الطرفين مريرا، عانت فيه العربية من المؤامرات المتتالية التي استهدفت قوانين التعريب الصادرة عن الحكومات الجزائرية المتعاقبة، فمرة يتم تجميدها، ومرة يتم التراخي والتسويف في تطبيقها، ومرة تتعرض للتعطيل العمدي في بعض القطاعات في الوقت الذي يُفْسَح فيه المجال واسعا للغة الفرنسية لتُمَكِّنَ لنفسها على ألسنة الجزائريين.

وقد ترك هذا الصراع الذي كانت الكفة ترجح فيه على الدوام لصالح التيار الفرانكفوني أثره في البيئة الجزائرية التي غزتها الرطانات الأجنبية بشكل غير مسبوق، وضاعت منها عاميتها النظيفة التي يؤكد الدارسون أنها كانت خلال العهد الاستعماري قريبة جدا

من اللغة العربية الفصحى التي تعد مصدرها الأول والأساس: "وندرك بإمعان النظر أن اللهجات الجزائرية موجودة كلها في اللهجات العربية القديمة، وأن ما نظنه غير عربي معظمه عريق في الفصحى، إنما دخله تغيير ظاهر أو خفي لا يدركه السامع إلا بإعمال الفكر والرجوع المستمر إلى المعاجم العربية وغير العربية وإلى الدراسات المتخصصة، وقد تتغيّر دلالة اللفظ الفصيح بالتوسع والمجاز والكناية والتهكم وغير ذلك من أساليب البلاغة، تتغيّر ضرورة لأداء معنى جديد يتطلبه العصر أو الحاجة، أو للجهل بأصلها في اللغة الفصيحة"٧٩.

فإذا بها بعد الاستقلال تتلوث بكمّ هائل من الكلمات الدخيلة التي فرضها الواقع الجديد عليها مع اتساع استعمال الفرنسية في مختلف القطاعات الحيوية: "كانت العامية الجزائرية قبل الاستقلال راقية غير مشوهة وقريبة جدا من الفصحى، ولم يتسرب لها التشويه إلا في عهد الاستقلال، بحيث صارت لهجة مِسخا، خليطا من الكلمات العربية والكلمات الفرنسية، سماها اللوبي الفرانكفوني المتحكم في الدولة الجزائرية (العربية الجزائرية) وطالب بترسيمها بدل الفصحى"٨٠. وإذا كان الجزائريون طيلة عقود الاحتلال قد نأوا بلغتهم العامية عن الفرنسية التي كانت تسيطر على كل القطاعات الحيوية في المجتمع أنفة منهم ومقاومة لعوامل المسخ والسلخ ما عدا ما شهدته بعض المدن ذات الأغلبية الأوروبية، فإن التيار الفرانكفوني قد تعمد بعد الاستقلال نشر اللغة الفرنسية بين الطبقات الشعبية تحت دعاوى التحضر والتقدم واكتساب العلوم ومسايرة التكنولوجيا الحديثة وما إليها من المبررات الواهية التي شوّهت العامية الجزائرية وأفقدتها صفاءها.

لذلك لم تظهر الدعوة إلى العامية بشكل علني في سنوات الاستقلال الأولى، لأن المعوَّل كان على إبقاء نفوذ اللغة الفرنسية وتوسيعه وتعميمه، وضمان التبعية الدائمة للجزائر للثقافة الفرنسية في كل شؤونها. وعندما تبيّن للوبي الفرانكفوني أن أنصار التعريب ماضون في مطالبهم بتعميم اللغة العربية وتفعيل قوانين التعريب التي تمَّ تجميدها، وأن التعاطف الشعبي حول هذه المطالب يزداد يوما بعد يوم، ظهرت الدعوة إلى العامية لتكون ورقة ضغط جديدة لقطع الطريق أمام كل محاولة لإعادة الاعتبار للعربية، وتمكينها من أخذ مكانها الطبيعي في مؤسسات الدولة المختلفة.وهو ما حدا بأحد أنصار التعريب إلى التأكيد على أن فكرة التدريس بالعامية ليست مشروعا جديدا تم طرحه بسبب مشكل معين في تدريس اللغة لتلاميذ الأقسام الابتدائية بل هي خطة (مجمدة) كان ينتظر أصحابها الوقت المناسب لطرحها.

ولا يماري أحد في أن مصدر الدعوة إلى العامية في الجزائر هو اللوبي الفرانكفوني الذي يقف بكل ثقله وراءها داعما ومؤيدا لتكون جبهة ثانية تعينه على إضعاف العربية، وزحزحتها من مكانها، وقطع كل الحبال التي تربطها بالواقع الجزائري. ومن أوائل من اقترح التدريس بالعامية بن علي بن زاغو٨١ الذي يعد أحد أقطاب التيار الفرانكفوني في الجزائر، وقد أدلى باقتراحه أثناء انعقاد المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطني عام ١٩٧٩م، حيث كان عضوا في لجنة الإصلاح التربوي بحزب جبهة التحرير الوطني الحزب الحاكم بالجزائر آنذاك ، لكن اقتراحه رفض بالإجماع. وهي دعوة جريئة في ذلك الوقت الذي شهد انطلاق مسيرة التعريب بموجب القوانين الصادرة بتعميم استعمال العربية. لكن صاحبها كان مدعوما من اللوبي الفرانكفوني لذلك ظل إطارا ساميا في الدولة وتسلم في سنوات التسعين من القرن العشرين رئاسة لجنة إصلاح المنظومة التربوية الجزائرية بعد أن اتُّهمت بتخريج الإرهابيين لأنها تدرس بالعربية، وصدر عن اللجنة التي كان يرأسها قانون الإصلاحات في بداية الألفية الثانية ودخل حيّز التطبيق عام ٢٠٠٣م، وكل بنوده تؤكد أن هناك نية واضحة لإعادة الفرنسية إلى مراحل التعليم الثلاث.

وفي عام ١٩٨٩م أصدرت مليكة بن قريفو٨٢ كتابها "المدرسة الجزائرية من ابن باديس إلى باقلوف" دعت فيه أيضا إلى تدريس الطفل في سنواته الأولى لغته العامية، وألفت عدة كتب مدرسية بالعامية موجهة لتلاميذ الطور الابتدائي، لكنها عادت بعد عقدين من الزمن فتراجعت عن ذلك، واعترفت للعربية الفصحى بمكانتها المتميزة في بناء شخصية الطفل الجزائري السوية والمتوازنة بشرط أن يتم إصلاح مناهج التعليم بالتخلي عن أسلوب التلقين الجاف وتبنّي تكوين ثقافي يخلق عند الطفل روح المبادرة والابتكار وفهم العالم، ووصفت الدعوة إلى التعليم بالعامية بأنها مهزلة.

ولما لم تجد هذه الاقتراحات صدى لها تمّ السكوت مؤقتا عن الموضوع، لكن التمهيد له ظل جاريا على قدم وساق وهذا ما يفسر تنامي الدعوة إلى استعمال العامية بشكل مثير ومشبوه ولافت للنظر خلال العقود الأخيرة، وتزايد عدد الأصوات التي تمجدها وتعدد مزاياها

ومحاسنها، وتدعو لترسيمها واستخدامها في التعليم والدوائر الإدارية من أبناء البلاد، وصحب هذه الحملة هجوم مقنّع على العربية، ينعى عليها صعوبتها وبعدها عن حركة التقدم والمدنية، وعدم قدرتها على استيعاب تطورات العصر المعرفية والتقنية، والفرق الكبير بينها وبين اللغة المحكية، وتحميلها مسؤولية تدنّي مستوى التعليم في الجزائر وتأخره، وإلصاق جريرة انهيار المنظومة التعليمية بها، واتهامها بأنها مدرسة فاشلة تخرج الإرهابيين لأنها تدرس بالعربية، وطالب بعضهم بالرجوع إلى فرنسة المراحل التعليمية كلها للنهوض بقطاع التربية والتعليم، وفي هذا الإطار جاءت الإصلاحات التربوية التي وضعتها لجنة بن زاغو وفرضتها على المدرسة الجزائرية عام ٢٠٠٣م والتي شوّهت مناهج التعليم ووسعت مجال اللغة الفرنسية، وبالموازاة مع ذلك تم تشجيع العامية في أهم فضاءات الإعلام المقروء والمرئي حيث اكتسحت الدارجة ميادينه مع التوسع في استعمال الفرنسية في الحديث وأسماء البرامج وما إليها.

ولما كان من الصعب على دوائر القرار التي أعلنت بشكل أو بآخر عن تأييدها لهذه الدعوة أن تعلن تراجعها الصريح عن التعريب، فقد: "كان على حُماة الفرنسية أن يفكّروا ويُدبّروا ليجدوا مخرجاً يصلح أن يستعملوه للالتفاف على موضوع التعريب. وقد دبَّروا وفكَّروا ووجدوا أن المَنفذ الوحيد هو الاحتماءُ بالدارجة. على أن استعمال الدارجة في التعليم لن يكون سوى خطة مرحلية تكتيكية يعودون بعدها، أو معها ، إلى إعلان الفَرنَسة الصريحة"٨٣. وفي هذا الإطار يمكن إدراج دعوة وزيرة التربية والتعليم نورية بن غبريط إلى تعليم العامية في سنوات التعليم الابتدائي الأولى والتي أعلنت عنها في شهر يوليو ٢٠١٥م، وشفعتها بنتائج الدراسات النفسية والتربوية التي تذهب إلى أن أفضل تعليم يتلقاه الطفل في سنوات دراسته الأولى يجب أن يكون باللغة الأم، لأن استعمال أية لغة مغايرة سيسبب له صدمة نفسية تحول بينه وبين الاستيعاب الجيد لمعطيات المنهج المدرسي.

وقد أحدثت هذه التصريحات التي صدرت عن جهة رسمية مسؤولة صدمة عنيفة للشعب الجزائري بكل أطيافه وطبقاته، وتلتها موجة من الاحتجاجات على جميع المستويات، ابتداءً بالأساتذة والمعلمين المعنيين بالأمر، مرورا بنقابات التعليم وأساتذة الجامعات، والمفكرين والمثقفين والمؤرخين والبرلمانيين ورجال الإعلام والأحزاب السياسية والمجتمع المدني الذين استنكروا بشدة هذا الاقتراح، وسالت أودية من أنهار الحبر في الصحف والمجلات تحلل الموضوع من جوانبه المختلفة العلمية والنفسية والتربوية والحضارية، وتكشف ثغراته، وتميط اللثام عن خلفياته، وتشير بأصابع الاتهام إلى التيار الفرانكفوني الذي يكنُّ عداءً دفينا للغة العربية ويتربص بها الدوائر ويتحيّن الفرص لتكريس تبعية الجزائر لفرنسا بتحطيم مقومات الشخصية الجزائرية الحضارية وبث الفرقة بين أهلها بقتل الفصحى التي توحّد صفوفهم وإحياء اللهجات المحلية التي تمزقهم قبائل وعروشا متنافرة.

وقد أجمع كثير من الباحثين والدارسين أن الدعوة إلى العامية لا تستقيم مع المقاربات العلمية والمنهجية، وأن الحجج التي تروّج لها وزارة التربية والتعليم بالجزائر لدعم مقترحها هشّة وضعيفة ولا تستند إلى أيّ منطق علمي أو اجتماعي، بل هي فكرة ملغمة٨٤ تهدد بتفجير المجتمع من الداخل وتفتيته، كما أكدوا أن مشروع الدعوة إلى العامية مشروع استعماري قديم جربته فرنسا خلال سنوات الاحتلال ولم تنجح فيه، فأوكلت أمره إلى صنائعها بعد الاستقلال للإبقاء على نفوذها اللغوي بالجزائر، وتغييب العربية التي تنافسها على ألسنة الجزائريين وتأبى أن تستسلم للضربات المتتالية، وتفتيت الوحدة الوطنية.

إن هذا الزخم الذي اكتسته الردود الكثيرة على الدعوة إلى العامية قد أرغم المسؤولين في وزارة التربية والتعليم الجزائرية على التراجع عن قرارهم بتدريس العامية خلال الموسم الدراسي ٢٠١٥م - ٢٠١٦م، وصرحت الوزيرة أن الخبر كان مجرد إشاعة أثارت ضجيجا لا مبرر له وأن وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي قد ضخمت القضية، وأن اللغة العربية تبقى هي اللغة المدرسية الأولى في الجزائر، لكنها أشارت إلى أن ذلك لا يمنع من أخذ مضامين التراث الوطني والشعر الملحون بعين الاعتبار لأن وجودها معدوم في الكتب المدرسية.

ومما سبق نخلص إلى أن الدعوة إلى العامية قد سارت في بلدان المغرب العربي الثلاث بطريقة منهجية ومدروسة وعلنية وفق مخطط واحد. وكان الهدف الأساسي من ورائها ليس هو الانتصار للعامية وتأهيل أبناء الشعب للتقدم والرقيّ، وإنما هو أولا وأخيرا التمهيد لإعادة الفرنسة التامة لمنطقة الشمال الإفريقي كما كانت تحت الاحتلال. وكذلك الحال بالنسبة اللغة لأمازيغية وهي أيضا مدعومة من الدوائر الرسمية النافذة في البلدان المغاربية،

خامسا: المخاطر والآثار الحضارية والاجتماعية والمعرفية المترتبة عن استعمال العامية

كل الدلائل تشير إلى أن التيار الفرانكفوني النافذ هو الذي يقود حركة الدعوة إلى العامية ويشرف عليها ويدعمها بقوة في سبيل التمكين للفرنسية وتوسيع نفوذها لعلمه أن العامية لا تستطيع الصمود في ميدان الفكر والأدب والتعليم، وإنما هي مناورة لإحداث البلبلة وخلط الأوراق وذر الرماد في العيون إلى أن يتم استبعاد الفصحى وإعدامها، عند ذلك يتفرغ هذا التيار لاستكمال بنود مشروعه، ويحقق الأهداف البعيدة التي سيجنيها من القضاء على الفصحى وإحلال العامية محلها، فمن الواضح لكل ذي عقل أن جميع الدعوات إلى العامية تصب في اتجاه الفرقة والتمزق، وفي اتجاه التأخر والتبعية للأجنبي.

إن هذه الدعوة التي ارتفعت أصواتها في السنوات الأخيرة حتى تحولت إلى ضجيج، وانتقلت من دائرة المجموعات الصغيرة التي كانت تتبنى الخيار الغربي للنهضة أو تلك التي تدافع عن القضية الأمازيغية إلى هرم السلطة كما هو الحال في الجزائر عندما صرحت وزيرة التربية والتعليم نورية بن غبريط٨٥ أن التعليم في سنواته الأولى يجب أن يتم باللغة العامية حتى لا يصاب التلاميذ بالصدمة، قد تناولتها أقلام الباحثين والخبراء وذوي الاختصاص الذين استشرفوا آثارها المدمرة على الذات الحضارية، ونبهوا إلى المخاطر الكثيرة الناجمة عنها والتي تصب عائداتها الإيجابية كلها في صالح الفرانكوفونيين في المقام الأول، وتتعدى فوائدها إلى المعسكر الغربي الذي يجند كل إمكاناته وطاقاته لفرض نموذجه الحضاري وتدجين الشعوب بالقضاء على خصوصياتها وتغييب تراثها لتصبح تابعا ذليلا يستمد منه وحده أسباب الحياة.

ويمكننا تصنيف هذه المخاطر إلى عدة مجموعات، منها المخاطر الحضارية، والاجتماعية والمعرفية، وكلها تضرب الذات في عمقها وتنسفها من الداخل لتتحول إلى أشلاء لا يربطها رابط ولا يجمعها .....

أ ـ إضعاف صلة العرب والمسلمين بالقرآن والسنة:

وهو هدف إستراتيجي راهنت عليه جميع القوى الاستعمارية، وجندت كل جهودها لتحقيقه بعد أن أيقنت حق اليقين أن الإسلام بتعاليمه ومبادئه وقيمه وأخلاقه قادر على صناعة الإنسان الإيجابي المستقل الذي يأبى التدجين ويرفض التبعية. وقد تعلم الغرب من طول تعامله مع المسلمين أن هذا الدين يحمل في طياته بذور الحياة التي لا تلبث أن تنتعش وتثمر كلما واتتها الظروف المناسبة، وأن القرآن هو ركنه الأساس وعموده الفقري، واللغة العربية هي التي تحمل روحه، وتحفظ كيانه سليما كما نزل من السماء. وأخطر ما فيه أن لديه منظومة من المبادئ والقيم الحية التي تناقض النموذج الغربي مناقضة تامة بحيث يشكل في حال نهضته منافسا قويا لها.

لذلك كان تغييب العربية الفصحى التي تربط العرب والمسلمين بالقرآن والسنة ربطا وثيقا خطوة ضرورية نحو القضاء على الإسلام وضمان عدم منافسته لهم في استغلال ثروات شعوبه وسلخها عن مقوماتها لتصبح طرفا تابعا لنموذجها الحضاري، والحيلولة دون جمع شملها وتوحيد كلمتها، وحرمانها من المصدر الوحيد الذي يمكنه شحنها بطاقة النهوض وصنع التاريخ. وقد أشارت إحدى الصحف العربية التي تصدر بأمريكا وتناصر الدعوة إلى العامية في سنوات الثلاثين من القرن العشرين إلى عن هذا الهدف عندما نصحت الرافعي بالتخلي في كتابة أدبه عن العربية التي تستمد من القرآن والسنة والسير مع تيار التجديد الذي يسعى إلى تحطيم قواعد اللغة والتحرر من أنظمتها لتكون له مكانة متميزة في عالم الأدب:"نبهتني إحدى الصحف العربية التي تصدر في أمريكا عندما تناولت الكلام على "رسائل الأحزان" بقول جاء في بعض معانيه أني لو تركت "الجملة القرآنية" والحديث الشريف ونزعتُ إلى غيرهما لكان ذلك أجدى عليَّ ولملأت الدهر ثم لحطمتُ في أهل المذهب الجديد حطمةَ لا يبعد في أغلب الظن أن تجعلني في الأدب مذهباً وحدي!"٨٦.

وقد أثارت عبارة الجملة القرآنية انتباه الرافعي وجعلته يتأمل بتركيز شديد ما يكمن وراء هذه الكلمة من المعاني الخفية والأسرار الخطيرة التي لم يصرح بها أصحابها، فوجد أن هذه النصيحة تختزل في طياتها الهدف البعيد الذي يسعى الداعون إلى العامية للوصول إليه وهو القضاء على العربية للقضاء على مصادر الهداية عند المسلمين (الكتاب والسنة)، لذلك اعتبر التخلي عن الجملة القرآنية جريمة تُميتُ الماضي وتضيع معه الأمة: "ولقد وقفت طويلاً عند قولها (الجملة القرآنية) فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل... وإذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها، وقيامها في تربية الملكة وإرهاف المنطق وحل الذوق مقام نشأة خالصة في

أفصح قبائل العرب، وردَّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه، وصلَتنا به حتى كأنه فينا،وحفظها لنا منطق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأنَّ ألسنتهم، عند التلاوة هي تدور في أفواهنا وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها – إذا أنا فعلت ذلك ورضيته، أفتراني أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية وأسِفُّ إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة، وأرتضخ تلك اللكنة المعوجة. وأعين بنفسي على لغتي وقوميتي، وأكتب كتابة تميت أجدادي في الإسلام ميتة جديدة؟!!!.٨٧"

وهذه الرطانة الأعجمية التي تحدث عنها الرافعي هي العامية التي كانت الدعوة إليها قائمة آنذاك على قدم وساق في المشرق العربي وشمال إفريقيا، والتي كان من أهدافها الخفية قطع صلة المسلمين بالكتاب والسنة لأن العامية يستحيل عليها أن تضطلع بحمل المخزون المعرفي الضخم الذي يكتنزه الكتاب والسنة.

ويستوي في هذا الهدف المشرق والمغرب، فكلاهما مُسْتَهْدَف في لغته في استبدالها بالعامية وحفر هوة عميقة بينه وبين القرآن لاستلابه فكريا، وتفكيك شخصيته واختراق هويته وتزوير عناصرها ومقوماتها الأساسية، ولقد اعترف بهذا موريس لوجلي Maurice Leglayحين قال:" ليس هناك إسلام حقيقي دون نشر اللغة العربية"٨٨.

ب ـ تدمير الهوية بقطع الصلة بين أجيال الأمة وتراثها العريق:

كان نزول القرآن حدثا تاريخيا مميزا بكل المقاييس، فقد حرر الإنسان من كل أنواع العبودية وأطلق العنان لعقله ليسبح في ملكوت الله يفكر ويستكشف ويبدع، وقادة ثورة علمية فتحت للإنسانية أبواب المعرفة في كل الاتجاهات، وتجاوب المسلمون مع هذه الدعوة الربانية وتفاعلوا مع توجيهاتها ففتحوا في دنيا العلوم فتوحا غراء، وتركوا بصماتهم في جميع أنواع المعارف الإنسانية. وهذا التراث الزاخر الذي تراكم لمدة تزيد عن سبعة قرون من التألق الحضاري كتب باللغة العربية التي تفجرت طاقاتها باحتوائها للنص القرآني، وعرفت تطورا رهيبا على أيدي العلماء المسلمين الذين صبوا فيها خلاصة إنتاجهم الفكري وعصارة عبقرياتهم واستطاعوا أن يضمنوها كل العلوم والمعارف والفلسفات التي كانت سائدة وأضافوا إليها ما تفتقت عنه قرائحهم من إبداع.

هذا التراث الغنيّ الذي يحوي آداب الأمة وأخلاقها، وسماتها وخصائصها، وفكرها واعتقادها، وطموحها ومستقبلها، ومنه تستمد مصادرَ القوة المعنوية فيملؤها ذلك فخراً واعتزازاً، وتفزع إليه في الملمات تستلهمه الثبات، ويشكّل بالنسبة إليها عاملا نفسيّا قويّا يُعطيها طاقة لا تُحدُّ في الصمود والمقاومة والتصدِّي لكل محاولات التدجين والتنميط ولاسيما إذا استهدف هويَّتها ومقومات شخصيتها الروحية والثقافية، وحضارتها وسيرةَ بطولاتها وملاحمها، مكتوب كله باللغة العربية، فإذا تم حجب الأجيال عنها، وبذلوا لها العامية التي لا تتعدى تغطية الحاجات اليومية انقطعت الصلة بين الماضي والحاضر وصارت الأمة كالريشة في مهب الريح: "فمن لا هويّة له مضطر بلا شك لتبنِّي شخصية الآخر وتقمصها والذوبان فيها، وسهل عليه أن يكون ذيلا من ذيولها وتابعا من توابعها. وفاقد الشخصية فاقد للتميّز ومسلوب الإرادة والرأي والقرار، ومن سُلِبَها فهو داخل في حكم المعدوم والمفقود"٨٩

ولدينا في تاريخنا الحديث نموذجا حيا يظهر لنا مخاطر قطع الصلة بين الأمة وتراثها وهو النموذج العلماني التركي. إن أخطر قرار اتخذه مصطفى كمال أتاتورك أثناء حملته التغريبية الشرسة هي استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في الكتابة، فقد وجَّه بهذا القرار ضربة قاضية للثقافة العربية الإسلامية التي كوَّنت لقرون عديدة هوية الشعب التركي وصبغت تراثه، فنشأت أجيال عديدة محرومة من هذا التراث، منقطعة الصلة به. وقد أشاد المؤرخ أرنولد توينبي بهذه الخطوة، واعتبر كمال أتاتورك أكثر ذكاءً وفطنة من هتلر الذي اكتفى بإتلاف الذخائر العلمية التي تعارض فكرته النازية وإحراقها. أما الحاكم التركي الذي كان مصمما على تحرير مواطنيه من عقلياتهم ومن أجواء المدنية الإسلامية، وصياغتهم بقوة في الحضارة الغربية فقد اكتفى بتحويل حروف الهجاء، وبذلك أصبحت الذخائر الكلاسيكية للكتب الفارسية والعربية والتركية لا تتناولها أيديهم، وأجنبية لا تبلغها مداركهم، وبذلك ستظل هذه الذخائر مقفلة في الدواليب ينسج عليها العنكبوت ولا يطمح في قراءتها إلا بعض الشيوخ المسنين من العلماء٩٠.

واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية أو استبدالها باللغة العامية سيان، فالعمليتان تؤديان إلى النتيجة نفسها، وهو وضع حاجز منيع بين العرب وتراثهم، وحرمانهم من الشعور بالانتماء الذي يزرع الثقة في النفس، ومحو معالم هويتهم التاريخية والحضارية

تهيئتهم لتقبل أيّ شكل من أشكال القولبة التي تخدم مصالح القوى الكبرى. والحقائق التاريخية تخبرنا أن:"من ليس له ماض ليس له جذور، ومن ليس له جذور يسهل اقتلاعه واجتثاثه ومحوه من ذاكرة التاريخ"٩١.

ومجمل القول أن الدعوة إلى العامية والمناداة بترسيمها كحلّ جذري للثنائية اللغوية التي يعيّرنا بها الغربيون وينسبون إليها تخلفنا معناه البسيط والنهائي التخلص من الفصحى مع كل ما سيترتب على ذلك من نتائج كارثية:"إن لغة الوحي هذ الدعامة الكبرى للوحدة الإسلامية، ومع موت هذه اللغة سيموت التعليم والتفاهم والرباط الأدبي المشترك، وستنشأ أجيال منكرة لتراثها وتقاليدها، بل لعباداتها وشعائرها. ومن أجل ذلك يجب أن نقاتل دون اللغة العربية، وألا نأذن أبداً بدحرجتها لتكون لغة ثانية، ثم ثالثة، ثم لغة ميتة...يتم بعدها تكفين الكتاب والسنة"٩٢.

ج- تسطيح الفكر وقتل الإبداع العلمي والأدبي:

على الرغم من كل الدعاوى التي يحتج بها أنصار العامية لتفضيلها على الفصحى إلا أن الدراسات اللغوية الجادة لا تتردد في التأكيد على أن العامية لا يمكن لها أن تكون لغة فكر وأدب، وأن اعتمادها في مراحل التعليم سيفضي حتما إلى كارثة محققة تكرّس البدائية والتخلف وتطمس الفكر وتقتل روح الإبداع في النفوس وترمي أصحابها إلى هامش التاريخ عندما تغلق عليهم أبواب المعرفة التي لا يمكن للعامية أن تستوعبها بأي شكل من الأشكال، لأن العامية تتكون من لهجات تنتمي إلى التراث الشفوي بلا قواعد مضبوطة، وجرُّها عنوة إلى المجال الفكري والعلمي والثقافي والتربوي القائم على التراث الكتابي ذي القواعد النحوية والصرفية والأسلوبية المضبوطة بدقة التباس عويص، وإقحام مجال في غير مجاله قائم على التشويش والتشويه، وكما يقول أحد الباحثين مؤكدا هذه الفكرة : "ولا أرى نفسي أكتب كتابا في اختصاصي الفلسفي بالعامية، لأنني لا أجد لا الكلمة الملائمة ولا الفكرة المواتية، لأن العامية هي لغة المعيش العفوي الفوري، وليست لغة التحليل والتركيب والمفهوم"٩٣

ويؤكد المتخصصون والخبراء أن الإنسان كلما تحضَّر احتاج إلى نمط خاص من التعبير يختلف عن النمط الذي يستعمله في وجوده اليومي، لأنه يحتاج إلى كلمات جديدة يعبر بها عن معان تقصر اللغة العامية عنها، لذلك يلتجئ إلى لغة أرقى طالبا الرويّة في التعبير، والسبب أن:"العامية لغة الحسّ والعجلة، لغة فجائية تلقائية انفعالية. والانفعال بيولوجي الطابع، لا يتيسر له وقت ولا فراغ كي يعمل الرويَّة. ولهذا تطفو العامية على سطح الوجدان، وتسيطر على روابط الجملة. وفي العامية ترص الوجدانيات كالقذائف والمتفجرات، ولا نعثر فيها على الجملة بالمعنى النحوي"٩٤، لأن الفكر إذا لم تسعفه لغة في التعبير:"خمدت جذوته، وضعف شأنه، وضاق نطاقه، واقتصر نشاطه على توافه الأمور وسفاسفها، فاللغة هي القالب الذي يصبُّ فيه التفكير: فكلما ضاق هذا القالب واضطربت أوضاعه، ضاق نطاق الفكر واختل إنتاجه"٩٥.

وهو المعنى نفسه الذي أكده اللغوي الإنجليزي هكسلي(Aldous Huxley) عندما صرح أن العامية تفسد الذوق وتقتل المواهب وتشل قدرات الفرد على الإبداع لمحدوديتها وضيق أفقها فقال: "إنه من الخطأ الجسيم أن يُكْتَبَ العلم بلغة عامة الإنجليز، لأن ذلك يؤدي إلى إضعاف المواهب العلمية، فضلا عن خسارة ملكة الإنشاء الفصحى. فترقية عقول العامة لفهم لغة العلم العالية أسهل وأفضل من أن يتزيّا العلم بأزياء لغة العامة فيتقهقر"٩٦.

والغريب في الأمر أن دعاة العامية الذين تزعموا الدعوة إليها في البلاد العربية قد أدركوا هذه الحقيقة، واعترفوا أن التفكير حين يرتقي مستواه لا تستطيع الأساليب العامية أن تسعفه وتحتويه لضيق أفقها وانحصارها في نطاق الاحتياجات اليومية العادية، وأنه لا بد من اللجوء إلى الفصحى التي مرنت قرونا طويلة على التعبير عن الفكر الراقي والفن الرفيع. ومنهم مهندس الري ولكوكس William Willcoks الذي ترجم مسرحيات شكسبير إلى العامية المصرية، لكنه وجد نفسه في مأزق كبير عندما عجز عن إيجاد العبارات المناسبة لهذه الروائع الأدبية فاضطر إلى الاستعانة بالفصحى لنقل مضامينها، لكنها ظلت مشوّهة بسبب الاختلال الحاصل بين لغة المسرحيات الراقية وتدني مستوى التعبير العامي بها٩٧. كما ترجم أيضا الإنجيل إلى العامية المصرية وقابله المشكل ذاته: "وفي هذه الترجمة وُجِدت العامية قلقة في موضعها لسمو المعاني التي تعبر عنها، والتي تحاول تشويهها، كما أنها لم تَقْوَ بمفردها على التعبير عن تلك المعاني،

فلجأ صاحبها إلى الفصحى يستمد منها العون شأنه في ذلك شأن كل المواضيع الرفيعة التي أرغم نفسه على معالجتها بالعامية"٩٨.

وقد أثارت جهوده المتوالية في هذا الميدان والتي كان ينشرها تباعا في جريدة الأزهر التي أسسها لهذا الغرض، حفيظة كثير من أنصار العربية الذين تعمدوا إغاظته وإفشال حملته فعمدوا إلى نشر جملة من المقالات بالعربية الفصيحة تتناول مواضيع مختلفة في شتى العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية ليثبتوا له أن العربية قادرة على أن تكون على قدم المساواة مع جميع اللغات الحية لولا ضعف أهلها ومكائد أعدائها، فأوقف صدور جريدته بعد صدور العدد العاشر منها معلنا فشله في إقناع المصريين بالتخلي عن الفصحى٩٩.

إن هذه الحقائق اللغوية التي تؤكد قصور العامية عن بلوغ مستويات الفكر الراقية وعن إنتاج أدب رفيع تبيّن لنا مدى المخاطر التي تتربص بالشعوب العربية إذا فُرِضَت عليها العامية وأُرغِمَت على التفريط في العربية الفصحى. إن اللغة العربية الفصحى التي تعمل الدوائر الاستعمارية ومَن والاها من عملائها على استبعادها لغة مكتملة العدة، ضُبِطت تراكيبها وحروفها وأوزانها وصيغها ومصادرها بدقة شديدة خلال أجيال طويلة، وألف العلماء في نحوها وصرفها وبلاغتها ما لا يأتي عليه الحصر من المؤلفات المتخصصة الدقيقة: "وإذا كان أمر العربية على هذا النحو من الشساعة والدقة والضبط، فإن توهم إمكان تفريغ معانيها ودلالات ألفاظها في لهجة عامية يكون أشبه بمحاولة تفريغ بحر محيط في كأس صغيرة، إن لم نقل إنه محاولة قاصدة وغير معلنة للتضحية بكل المعاني والمضامين الدينية والحضارية التي تحملها الكلمة العربية مثلما تحمل البصمة الوراثية كل خصائص صاحبها"١٠٠.

لذلك كان التحوُّل من الفصحى إلى العامية أمرا غير ممكن معرفيا، إنه يشبه عملية قتل عمدي لكيان حضاري شامخ. ويتساءل مصطفى بن حمزة إذا كان بالإمكان العثور على ألفاظ عامية: "تؤدي مضامين كلمات فصيحة تنتمي إلى حقول معرفية عديدة مثل كلمات الإرسال والإعضال والتخريج والتدبيج والإعلال من مصطلحات علوم الحديث. كما يمكن التساؤل عن ألفاظ عامية بإمكانها أن تنوب مناب كلمات من مثل الذمة والأهلية والسبر والتقسيم وتنقيح المناط وغيرها من كلمات المعجم الأصولي... إن الأكيد أن هذه الكلمات وغيرها مشحونة بدلالاتها الدقيقة التي لا مقابل لها في أي لغة من اللغات العالمية فضلا عن العامية، فلذلك لا تكون الاستعاضة عنها إلا تضحية بجميع تلك المضامين"١٠١.

وتطرح الدعوة إلى العامية إشكالية مماثلة حين نتطرق إلى مصير تراثنا الزاخر الذي أثراه الجاحظ والمعري والمتنبي وابن سينا وابن رشد والغزالي والكندي والفارابي بروائعهم، وحصيلة نهضتنا الحديثة من الفكر والأدب، هل سيتم ترجمته إلى العامية على فرضية أن هذا الأمر العجيب ممكن، أم نتخلص منه:" وقد لا يُكلِّفُنا ذلك أكثرَ من عُودَ ثقاب واحد، ويا حسرةً على ما أضاعَه الآباءُ والأجدادُ من قرون في كتابة هذا التراث وحفظه !! ولَرُبمَّا أخذتنا الشَّفقةُ بهذا التراث الضخم أو تعذَّرَ علينا إحرافُه، وحينَذاك سنضَعُه في متاحف الآثار لتتفرَّج عليه الأجيالُ القادمةُ. ولعلنا سنكتفي بما جمعه لنا الفرنسيون منذ دخلوا بلادنا، من قصص شعبي وخُرافات وأساطير، أو نستعيض عن روائع أحمد شوقي وأبي القاسم الشَّابِّي بعدد من الأناشيد المُترجَمة عن الفرنسية إلى العامية"١٠٢

كما استنكر الباحث المغربي عبد العلي الودغيري المنطق الغريب الذي يحتكم إليه الداعون إلى العامية عندما يضحون بلغة عريقة حملت أعباء حضارة عالمية وتألقت لقرون طويلة في سبيل لهجات محلية لا تتجاوز نطاقها الضيق ويعلقون عليها الآمال في أن تكون طريقهم إلى النهضة والتقدم: "أما القول بأن استعمال الدارجة هو الذي سوف ينقلُنا إلى طور الحداثة والمعاصرة. فأنا لا أدري، ويا ليتني أدري، كيف ستحدثُ هذه المعجزة. هل لأن الدارجة – لغة الأميّين – فيها من المصطلحات العصرية ما لا يوجد في الفصحى لغةِ العلوم والفنون والحضارة والآداب، أم أن مجرد تخلِّينا عن لغتنا الأصيلة هو الذي سوف يقذف بنا إلى سماوات الحداثة؟"١٠٣

د ـ تمزيق الوحدة الوطنية وتشتيت الأمة إلى قوميات وأقليات:

إن الدور الريادي الذي تقوم به العربية الفصحى في ربط أجزاء الوطن العربي بعضها ببعض وفي ربط هذه الأجزاء بباقي البلدان الإسلامية لا يخفى على أحد، ودورها في توحيد أبناء المجتمع الواحد أمر معلوم. يقول الرافعي:" ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما اطَّرد التاريخ الإسلامي ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية، ثم لتلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين ونضب ما بينهم فلم يبق إلا أن تستلحقهم الشعوب وتستلحمهم

الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية ـ لا السياسية ـ فلا تتبين من آثارهم بعد ذلك إلا ما يثبت من طريق الماء إذا انساب الجدول في المحيط"١٠٤.

لذلك كان اعتماد العامية والتخلي عن الفصحى إيذان بتفتيت هذه الوحدة وتقطيع جسد الأمة إربا إربا، وحصر أصحاب كل عامية في حدود عاميتهم الضيقة، وبناء حواجز تقطع تواصلهم وتكرّس فرقتهم وتزيد من ضعفهم وتجعلهم نهبا للأقوى:" لقد كانت الفرنسية- وغيرُها من اللغات الأوروبية التي ارتبطت بالاستعمار - تبحث دائماً عن بيئة صالحة لتعيش وتحيا وتُعمَّر فيها وتسود.وهذه البيئةُ المناسبة كانت تجدها وسطَ لغات ضعيفة أو لهجات ليس لها مقوِّمات الصمود، وهذا ما تمَّ لها بالفعل داخل الدول الإفريقية التي احتلتها"١٠٥.

لقد تبيّن لكل الغربيين الذين عكفوا على دراسة العاميات العربية أنها تختلف من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية،بل ومن حيّ إلى حيّ في المدينة الواحدة، وقد وجدوا صعوبة بالغة في وضع القواعد والضوابط التي تنظمها بسبب خضوعها للتغيرات السريعة التي تجري على أرض الواقع ولأهواء المتكلمين في النطق بها وتصريفها، وعلى الرغم من كل ذلك ظلوا يصرون على الدعوة إلى تبنيها كلغة للتعليم والكتابة لعلمهم بمدى الانحطاط الذي سوف يصيب أهلها إذا هم تخلوا عن لغتهم الفصيحة الراقية واستبدلوها بهذه العاميات الضعيفة، بالإضافة إلى ما سوف يعصف بهم من مظاهر الفرقة والتشتت لانعدام اللغة التي تجمعهم وتوحّد مشاربهم. ويعترف ولهلم سبيتا wilhelm Spitta أنه أثناء جمعه لألفاظ العامية المصرية وجد صعوبة كبيرة في ضبطها ضمن قواعد معينة، لأنها تختلف من مكان إلى آخر اختلافا بيِّنا، وانتهى إلى أنه من المحال أن يلمّ بهذه اللهجات جميعا، ثم تبيّن له أنه من المحال أيضا أن يلمَّ باللهجات المختلفة في أنحاء مدينة القاهرة وحدها، فاكتفى أخيرا بدراسة لهجة القاهرة فقط١٠٦.

وهذا هو الواقع الموجود في الجزائر التي تضم لهجات عديدة تختلف باختلاف المدن والقرى في الشرق والغرب والشمال والجنوب، فأيَّة لهجة نختار لتكون لغة التعليم؟ وكيف سنقنع أصحاب باقي اللهجات بالتنازل عن لهجاتهم لصالحها؟ أم أن التعليم سيتعدد بتعدد العاميات فتسري الفوضى في البلاد وتتحوّل إلى طوائف مجهرية، كل طائفة منعزلة عن أختها لا تعرفها ولا تفهمها: " أم علينا أن ننتظر إلى حين استنباط عامية معيارية مشتركة تأخذ من كل العاميات بنَصيب، علماً بأن مثل هذا الأمر سيتطلّب الوقت الطويل والجهود المُضنية والمصاريف الباهظة؟ أم أن منظمة الفرانكفونية هي التي سوف تتكفَّل بكل المَصاريف والدراسات، وتُعوِّضنا عن الوقت الثَّمين الذي سوف نُضيِّعه في حل هذه المُعضلة؟ ولماذا لا تفعل ذلك ونحن سوف نتخلى لها عن العربية الفصحى التي تزعجها جداً جداً؟"١٠٧.

وينسى دعاة العامية أو يتناسون أن فرنسا التي تشد أزرهم في محاربة الفصحى قد خاضت معارك قاسية لتوحيد لغة التعليم والإدارة، فاختار زعماؤها لهجة باريس لتكون لغة البلاد الرسمية وتم استبعاد جميع اللهجات الأخرى بقوة القانون ليستقيم أمر المؤسسات الرسمية والتعليمية، وما زالت هذه اللهجات موجودة إلى يومنا هذا، ولم يجرؤ فرنسيّ على الدعوة إلى استعمالها لغة فكر وأدب إلى جانب اللغة الوطنية لعلمهم بآثارها الوخيمة عليهم.

وإمعانا من دعاة العامية في المغالطة يذكرون دائما أن الدول الأوروبية لم تتقدم وتنهض إلا بعدما تخلصت من اللغة اللاتينية وأحيت لهجاتها المحلية وهذبتها وجعلتها دليلها لاكتساب العلوم وإنتاج المعرفة. بينما يؤكد كثير من اللغويين والخبراء أن تاريخ أوروبا مع اللاتينية يختلف اختلافا كبيرا عن تاريخ العربية مع شعوبها ولا مجال للمقارنة بينهما حتى لا تكون هناك ذريعة لفرض مسار اللاتينية على مسار العربية الفصحى. ذلك أن حالة اللاتينية هي: " حالةُ لغة سيطرت بالقوة ، على لغات شعوب مغلوبة، ثم جاء الوقتُ الذي تخلَّصت فيه تلك الشعوبُ من لغة المحتلِّ واصطنعت لغات خاصة بها، وهذا لا يتعارض مع كون تلك اللغات المستقلّة قد تأثَّرت بدرجات متفاوتة باللاتينية واقترضت منها رصيداً معجمياً هائلاً كما اقترضت من لغات أخرى في مقدمتها العربية واليونانية والعبرية وغيرها. أما اللغة الإنجليزية فإنما اضطُرت في مرحلة تاريخية أن تستعمل اللاتينية لأنها كانت لغةَ العلم والثقافة، وإلا فهي ليست فرعاً من اللاتينية"١٠٨.

هذا بالإضافة إلى أن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم قد سطّر لها قدرا متميزا لم تحظَ به لغة أخرى في العالم، حيث أحاطها المسلمون بقدر عال من العناية والاهتمام، فضبطوا ألفاظها وحركاتها وأرسوا قواعدها ودونوا كل شاردة وواردة تتعلق بها لما لذلك من أثر في تفسير النص القرآني والاطلاع على معانيه واستشراف مقاصده، فظلت العربية نقية طرية صافية تنتقل عبر العصور والدهور لا تشوبها شائبة ولا يلحقها قصور، ووصلتنا كما كانت منذ نزل بها القرآن الكريم محفوفة بمؤلفات العلماء وجهودهم المتواصلة في الحفاظ

عليها: "لغة الضاد لا تسير على نهج غيرها من اللغات فلها قانونها الخاص، اللغات الأخرى كانت تتفكك من اللغة الأم لتتطور بعيدا عنها، فلو بعث لاتيني اليوم لما فهم اللغة الفرنسية، ولو أراد فرنسي أن يفهم كلام لاتينيّ بُعِثَ لما استطاع. بخلافنا نحن، فلو بعث عنترة وأراد أن يتغزل بعبلة في أبياته لفهمنا جميعا شعره"١٠٩.

سادسا: نحو إستراتيجية شاملة لمواجهة هذه الدعوة

إن المخاطر الجسيمة التي تتهدد اللغة العربية جراء حملات الدعوة إلى العامية التي تتزعمها مجموعات كثيرة لكل واحدة منها اتجاه وانتماء لكنها تلتقي جميعا عند نقطة واحدة هي القضاء على العربية، تستوجب من أبناء الفصحى المخلصين أن يتكتلوا في جبهة واحدة لوضع إستراتيجية شاملة تحمي هذه اللغة الشريفة من الضربات والمؤامرات، وتردّ عنها محاولات الإقصاء، وتعزز مواقعها في العقول والقلوب، وتمهد لها الطريق لاستعادة مكانتها اللائقة بها على ألسنة أبنائها، وتنفض عنها غبار السنين، وأثقال عصور التخلف وعقود الهيمنة الاستعمارية. ويمكن إجمال أهم معالم هذه الإستراتيجية فيما يلي :

أ ـ العمل على تجاوز حالة الإحباط والانهيار النفسي:

الذي يعصف بالشعوب العربية بسبب توالي سلسلة الهزائم والانكسارات والصراعات الداخلية واستعادة الثقة بالنفس وبالهوية العربية الإسلامية والتصالح مع الذات، وإدراك الواقع بعيدا عن تهويمات الغرب التي ما فتئت تزرع بذور الخنوع واحتقار الذات في نفوس المسلمين، والاقتناع بأن الأيام دول، يوم لك ويوم عليك، وأن غدنا الجميل آت إذا نحن أحسنا العمل وتركنا اليأس جانبا.

ب ـ تعزيز شعور الاعتزاز باللغة العربية:

باعتبارها لغة الدين والعلم والحضارة، وإحدى المقومات الأساسية للهوية ذلك أن تفريط أبناء العربية في لغتهم والإعراض عنها هي أخطر وأصعب مشكلة تواجهها العربية وهي تتعرض لمؤامرات استبدالها بالعامية، إذ أن هذه اللامبالاة ستكون عونا لأعدائها ليشتدوا في هجومهم عليها، وفي محاصرتها. وهذا الشعور إنما يربو وينتعش إذا صاحبه وعي عميق بأن اللغة ـ أية لغة ـ إنما تعيش بالاستعمال وتموت بالإهمال، وأن أمر قوتها وضعفها عائد إلى أبنائها، وهي الحقيقة التي أكدها ابن حزم في قوله: "فإن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهله"١١٠

ج ـ التنبيه إلى مخاطر العامية:

وبث الوعي بين الجماهير بما تنطوي عليه من الآثار المدمرة على الذات الحضارية عندما تفقد الأداة الأساسية التي تربطها بمرجعيتها المقدسة، وتراثها الزاخر، وتضيع منها لغتها الراقية التي استوعبت علوم الأولين وعصارة فكر أبنائها طوال عشرات القرون لتستبدلها بعامية ضيقة محدودة هجينة مضطربة فوضوية لا تنتج معرفة ولا تقوى على حمل العلوم، فتموت مواهبها وتشل قدراتها الفكرية وإبداعاتها الأدبية وتصير كائنا هلاميا قابلا للاحتواء من أيّ قوة فكرية ولغوية تجتذبها وتملي عليها إرادتها، لأن الكون لا يقبل الفراغ، والاعتماد على العامية في زمن تتنافس فيه اللغات القوية على استقطاب المعرفة وتحويلها إلى قوة انتحار حضاري بكل ما تحمله الكلمة من معاني.

د ـ الوعي بالمؤامرة الفرانكوفونية:

واستعراض تاريخها الأسود مع مستعمرات فرنسا، وكيف دأبت على قتل كل هويات الشعوب التي سيطرت عليها، وتغييب لغاتها في بطون النسيان، وإتلاف تراثها، وتنفير الشعوب وتجهيلها والإمعان في استغلال ثرواتها المادية وطاقاتها البشرية لصالح رفاهيتها ، وفرض

لغتها فرضا قسريا. والتركيز على معاداتها الصريحة والطويلة للغة العربية، لأن التيار الفرنكفوني يدرك بوعي كامل أن العربية هي اللغة الوحيدة التي تملك مقومات وجود فكري وثقافي وعلمي راسخ وثابت وقويّ، تستطيع به مواجهة الفرنسية بخلاف العاميات المختلفة التي تفتقر إلى التراث العلمي والثقافي المكتوب، وتعاني من الكثرة والانقسام والنمو العشوائي الذي لا تحكمه قيود.

وقد دأبت الفرانكفونية في تاريخ صراعها الطويل مع العربية على ممارسة سياسة الإقصاء والاحتكار، فعندما فرضت على الجزائريين غداة الاستقلال الازدواجية اللغوية حملت شعارا تمويهيا يوهم أن البلاد بحاجة إلى لغة أجنبية قوية للتفتح على العالم واكتساب العلوم والتقنيات، إلى أن تتأهل العربية للقيام بهذا الدور، لكن الذي حصل أن العربية تم تهميشها وإهمالها عمدا من طرف اللوبي الفرنكفوني الذي أحكم سيطرته على مراكز القرار وأبعد كل الإطارات المعرّبة، وأفسح المجال للفرنسية لتتمدد وتتغلغل في الواقع الجزائري بعمق، وبعد أن كانت مجرد أداة مرحلية أصبحت واقعا مستقرا وقدرا محتوما، وأصبح إتقان الفرنسية شرطا ضروريا لتقلد وظائف الدولة والقطاع العام.

ثم حارب كل دعوة إلى الانفتاح بمعارضة إدراج اللغة الإنجليزية في مناهج التعليم معارضة قوية في مناطق النفوذ الفرنسي، وحرم الشعب من الاستفادة من ثمرات ثورة المعلومات التي قلبت كل الموازين إلا أن يكون ذلك بالفرنسية: "إن الفرنسية لم تمارس إقصاءً حقيقيا وعنيفا ضد اللغة العربية وحدها، ولكنها مارسته أيضا ضد الأمازيغية من جهة، وضد اللغات الأجنبية الأخرى كالإنجليزية والإسبانية، أي ضد التعدد والتفتح اللغويين الحقيقيين من جهة ثانية، فاحتكرت السوق احتكارا تاما بإغلاق الأبواب كافة أمام كل لغة أخرى غير الفرنسية"١١١، هذا على الرغم مما تشير إليه الدراسات والإحصاءات من تراجعها وضعفها مقارنة بمثيلاتها من اللغات الحية.

ه ـ إصلاح لغة الحديث في المدارس والمساجد والإعلام:

والتجمعات العامة والالتزام بالحديث بالفصحى المهذبة لتدريب أسماع العامة عليها وتعويدهم على ألفاظها وتراكيبها حتى يستأنسوا بها ويقتربوا منها وتتشربها أرواحهم وتألفها آذانهم. وقد أثبت هذا الأسلوب نجاعته في كثير من المواقف التي تم تجريبه فيها، إذ يذكر أحد الأدباء أن العامة كانوا يستمعون إلى قصص عنترة العبسي والزير سالم وسيرة بني هلال والزناتي وألف ليلة وليلة بالعربية فيفهمونها ويقتبسون من تراكيبها جملا كثيرة يرددونها في مسامراتهم واجتماعاتهم، ويؤكد منصور فهمي أن لغة العامة البسطاء قد تغيّرت تغيّرا ملحوظا بعد أن انتشرت الإذاعة في المقاهي والدكاكين، وأن الفرق بين لغة هذه الطبقة من الناس وبين غيرهم من الطبقة نفسها منذ خمسين عاما فرق شاسع بسبب ما دخل في ألفاظ الطرف الأول من عبارات فصيحة التقطوها بالسماع١١٢.

ويسجل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنه كان يتعمد الحديث بالفصحى في دروسه المسجدية مع علمه أن أغلبية مستمعيه من الأميين، وذلك حتى يفعل التكرار فعله في نفوسهم ويقتربوا منها شيئا فشيئا، وقد نجحت تجربته وأشار إلى أن رواد دروسه قد تذوقوا حلاوة العربية وبدؤوا يفهمونها ويحثونه على الاستمرار على هذا النهج: " ولقد بدأتُ دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربيّة الفصحى وأخذتُ نفسي بذلك أخذًا أصل به إلى درجة الإغراب أحيانا... ومازلنا على هذا حتى فعل المِران فعلَه، وأصبحوا يفهمون ويذوقون ويخرجون وهم يتدارسون... وقد رجعتُ إلى العامّية في بعض الدروس فاستهجنوها، ونَبَتْ عنها أذواقهم، وإنّي لا أدري لماذا لا نعجب للعامي يتعلّم الفرنسية بالسماع، ونعجب – بل لا نكاد نصدق – له أن يتعلّم العربيّة بالسّماع، مع أنّ العربيّة أقربُ إلى عامّيته وفطرته وروحه"١١٣.

ويقابل هذه المحاولات الإيجابية ما يدعو إليه أنصار العامية الذين يحلو لهم أن يقلبوا الموازين ويناقضوا المنطق المعقول حينما يحتجون لدعواهم بأن غالبية الناس في الوطن العربي أميون لا يفهمون إلا العامية، وأن الفصحى مقتصرة على فئة قليلة جدا مما يستدعي الكتابة بالعامية لغة الجماهير الواسعة: "وهذا – لعمري – هو التفكيرُ بالمقلوب. فنحن بدلَ أن ندعو لتعميم التعليم وفرض إجباريته ومحو أُميَّة العامة باللغة التي ترفع مستواهُم وتَربطُهم بعالَم المعرفة والثقافة، وتعمل على اندماجهم في عالَم أرحبَ وأوسَع، نستسلم لواقع الأمية المُتفشّي ونجعله هو القاعدة والتعليم هو الشاذُّ الذي لا يُقاسُ عليه. ونطالب بتبنّي لغتهم العامية والتخلّي عن الفصحى لأن عدد المُتعلّمين الذين يعرفونها قلةٌ قليلةٌ"١١٤.

والأمر نفسه يتعلق بالأطفال، بل إنهم لصفاء أذهانهم واستعدادهم القويّ لاكتساب اللغة في سنواتهم الأولى يكونون أكثر قابلية

لاستيعاب العربية من الكبار، ولعل فيما نشاهده من حفظهم السريع لعبارات أبطال الرسوم المتحركة حفظا سليما بحركاته الإعرابية ما يؤيد هذه الحقيقة. والذين يزعمون أن الطفل تصدمه العربية الفصحى بصعوبتها وتعقيداتها والأفضل له أن يبدأ تعليمه بالعامية التي نشأ عليها بالبيت لا يبدون أية ملاحظة بخصوص أطفالنا الذين يبدؤون تعليمهم منذ سن الحضانة في رياض المدارس الأجنبية الخاصة باللغة الفرنسية التي لم يعرفها أبدا في حياته، والتي تجد الترحيب والتشجيع وتعرف انتشارا واسعا في الجزائر.

ويكشف عبد العلي الودغيري عن أبعاد المؤامرة على العربية وعلى مستقبل أبناء البلاد العربية عندما يسفِّهُ حجج أصحاب هذه الدعوة فيتحداهم قائلا: "ما دامت اللغة الأم هي الأصلح والأنجع فلماذا تسمحون لمدارس البعثة الفرنسية أن تفرض اللغة الفرنسية وحدها دون شريك على أطفالنا منذ الروض الأول؟ ولماذا لا تطبقون هذا المبدأ العلمي الذي وجدتم أنه صحيح طبيا ونفسيا على أبنائكم فتُعطُون به القدوة للآخرين؟ لماذا تُهَرِّبون أبناءكم إلى مدارس البعثات الأجنبية ليتعلموا لغة موليير أو شكسبير منذ أول يوم، وتطالبون أبناء الشعب من الفقراء والطبقة الوسطى أن يتعلموا لغة الشارع و(الزَّنقَة)؟"١١٥. ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن العربية التي ستسود في بيئتنا من الضروري أن تخضع لبعض الإصلاحات التي تجعلها سهلة ميسورة، على أن يتم إصلاحها في ظل احترام النظام الصوتي والصرفي والتركيبي لها، إذ لكل لغة نظامُها الخاص، وفائدةُ وجودِ النظام في اللغة أنه يُحقِّق وظيفةَ استمرار التفاهُم والتواصل المشترَكين بسهولة تامة، وللعربية قواعدها وآلياتُها الخاصة بالتوليد والاشتقاق والنحت والتعريب والترجمة وإنتاج ما لا يُحصى من الألفاظ والتعبيرات الجديدة التي تجعلها من أجمل وأسهل اللغات التي تجري على الألسنة: " وتعميمُ العربية الفصيحة المُبسَّطة عبرَ الوسائط السمعية البَصَرية من خلال كلِّ برامجها حتى الترفيهية منها والرياضية والأفلام والمُسَلسَلات والأغاني والإشهار، سيجعلنا نلمَسُ مقدارَ التحوُّل الكبير الذي يطرأُ على لغةُ العامة في ظرف وجيز. وهذه العربيةُ المُبَسَّطةُ التي ندعو لتعميمها في وسائل الإعلام وغيرها من المجالات، هي العربية الحديثة التي تتفاعلُ مع واقِعنا الحالي، الخالية من الألفاظ الغريبة العَصِيَّةُ على الفَهم، والتراكيب القديمة التي تجاوزَها العصرُ، لكنها في الوقت ذاته غيرُ مُتَمرِّدة على قواعد اللغة الأساسية الصوتية والصرفية والنحوية والمُعجمية"١١٦.

و ـ العناية بتكوين المعلمين تكوينا لغويا سليما:

يجعل من معلم كل مادة معلمَ لغة يقدمها صحيحة مهذبة لطلابه بأسلوب يحبب لغتهم إليهم ويثير في نفوسهم الحب والاعتزاز بها، ويصحح نطقهم ويرغبهم في إتقانها والاستزادة منها، ويهذب أذواقهم ويسهل لهم عملية التفكير والتعبير بها، ويفتح الباب للموهوبين والمبدعين ليفرغوا فيها خلاصة إبداعهم. وهذا طريق لتطوير العربية وتنميتها وسبيل واسع من سبل إدماجها في الواقع وإغنائها بمواضيع الساعة والقضايا المستجدة وإخراجها من العزلة المفروضة عليها، لأن اللغة لا تستطيع أن تطوِّر نفسَها وهي مهمشة ومُبعدَة وموضوعةٌ على الرّفّ، ومن الجهل أو الكيد أن نغلق عليها أبواب المعرفة وسبل الحياة ثم نتهمها بالعجز والقصور، ونتحجج لتمديد زمن معاناتها بأننا لا نريدُ استعمالَها إلا إذا طوَّرت نفسَها.

ز ـ إعادة الدور الحضاري للعربية بإفراغها من العلائق الإيديولوجية المخربة لها:

وشحنها بالأدوار التكوينية من اشتغال على الذات وبحوث نقدية وحيادية، ومعلومات موضوعية، وتصورات متحررة من أجل بناء واقعي للإنسان العربي، لأن التطبيقات المشوهة لسياسات التعريب كانت إيديولوجية أكثر منها معرفية، لتبجيل الحاكم أكثر من تشكيل الذات، لتقديس الإمام أكثر من فهم الدين، تبرر الإيديولوجية القائمة وتبجلها: "كانت لغة المَتْحَفة والإتحاف للبكاء على الأطلال أو تمجيد الأبطال: "فكان أن اندثرت فاعليتها لأنها لم تكن من أجل التكوين الخالص للإنسان المواطن، بل كانت أداة في خدمة خيارات إيديولوجية أفرغتها من دورها التربوي والتكويني وعمّرتها بالأدوار الدعائية والتعصبية للأنظمة الحاكمة"١١٧.

ح ـ تهيئة العربية تهيئة رقمية لتمكينها من التفاعل الإيجابي مع العولمة:

لا ينكر أحد أن تيار العولمة قد اجتاح العالم وفرض على الجميع أساليبه في التعاملات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية

بما يملك من قوة التقنية وسلاح المعرفة. وقد تبيّن لنا أن اللغة أضحت ذات قيمة أساسية في المنظومة العولمية التي تعتمد في سيرها وتطورها على إنتاج المعرفة وتسويقها. لذلك تسعى الشعوب والأمم إلى الارتقاء بلغتها لإدماجها في هذه المسيرة بهدف اكتساب القدرة على التفاعل معها والاستفادة القصوى من معطياتها بدل العزلة التي تجعلها هدفا سهلا للاستغلال والتبعية.

ومن أنجع السبل لتأهيل اللغات لهذه المرحلة الجديدة من تاريخ البشرية رقمنتها وإعدادها للدخول إلى الشبكة العنكبوتية التي تربطها بمصادر المعلومات في العالم أجمع. ولا يخفى علينا أن العربية تعاني من قصور واضح في هذا المجال، بسبب ما يعتريها من الضعف الناتج عن ضعف أبنائها وإهمالهم لها وإقبالهم على اللغات الأجنبية، وأن غيابها في الزمن الرقمي وتأخرها المرعب في البدء ببناء قاعدة تحتية لحضورها على الإنترنت يشكّل معضلة كبيرة. لذلك كان تدارك الخلل في هذا الميدان ضرورة حيوية: "لقد سبقتنا أمم كثيرة في هذا المجال، واتضح بما لا يحمل مجالاً للشك أن تلك "الرقمنة" كانت الطريق التي احتضنت سيرورة النماء المعرفي لتلك الأمم، وبالتالي صيرورة التطور التي أوصلت دولة كالصين على سبيل المثال إلى سدة الحضارة الإنسانية بعدما كانت في عداد الدول النامية١١٨" . فقد أثبتت الأحداث بما لا يدع مجالا للشك أن اللغة في عصرنا الحاضر أصبحت هي الوسيلة التي تحرك المشروع الثقافي والحضاري المعاصر.

وهذا الأمر يحتاج إلى جهد قومي جماعي كبير يتبنّى إستراتيجية شاملة في التخطيط والتنفيذ، وتشارك فيه الحكومات بالدعم القانوني والمادي، والمؤسسات الأكاديمية وغير الأكاديمية ضمن مشروع متكامل يمكّن اللغة العربية من اللحاق بلغات العالم الحية على الإنترنت، ويسمح برقمنة ما هو موجود حتى الآن من محتوى عربي مبعثر هنا وهناك في خزائن الأرض، ومن ثم إيجاد آليات لتطوير محتوى جديد يخاطب الحاجات العصرية للأجيال.

ط ـ خطة عربية موحدة ومشتركة ومدعومة بقرار سياسي حازم ونافذ:

وهذا البند هو كلمة الفصل التي تستوعب كل ما أسلفنا الحديث عنه من خطوات منهجية للدفاع عن العربية ودرء أخطار العامية عنها بخاصة وباقي التهديدات التي تتربص بها بعامة. فكل الاقتراحات والحلول الكفيلة باستعادة مكانة العربية اللائقة بها تحتاج إلى قرار سياسي حازم ونافذ محاط بالقوانين الصارمة التي تشرف على تطبيقها وتتابع سيرها وتعاقب المخالفين وتشجع المبادرين، وتستفيد من جهود المخلصين. والتاريخ والتجارب الحديثة تؤكد لنا أن جميع الدول التي طوّرت لغاتها وجعلتها أداة فعالة لاكتساب العلوم والتقنية وإنتاج المعرفة وأهلتها للمنافسة القوية في الساحة العالمية وفتحت لأبنائها فرص توطين التقنية والإبداع فيها إنما فعلت ذلك تحت غطاء سابغ من القرارات السياسية الحازمة التي تم تطبيقها بصرامة وأمانة للوصول إلى الأهداف المنشودة. والأمثلة على ذلك تفوق الحصر منها التجربة الفيتنامية والتجربة الإيرانية والتجربة الأندونيسية والتجربة العبرية التي أحيت لغة ماتت منذ عشرين قرنا وأصبحت تقف في المجامع الدولية والتجمعات العلمية موقف الند للند مع اللغات الحية العالمية وغيرها كثير.

والتيار الفرانكفوني الذي يسوّق للعامية حتى تفشل في مهامها فيمكّن للفرنسية بدلها، ويستكثر علينا قانون التعريب فيغتاله وهو في المهد ويكيد له بشتى السبل حتى لا يعود إلى الحياة ينسى أو يتناسى أن فرنسا التي يقدم لها آيات الولاء بذبح العربية في بلادها قد قام فيها الأب غريغوار Abbé Grégoire عام ١٧٩٠م باقتراح تعميم لهجة باريس بالقوة واعتبارها لغة رسمية وحيدة، وإلغاء كل اللهجات العامية، وبرر هذا القرار بأنه السبيل الوحيد لإعادة توحيد فرنسا بعد خمسة قرون من الملكية الاستبدادية الفاسدة، وخمس سنوات من الإرهاب الثوري، وأنه الطريق الأفضل لتأسيس لغة عقلانية، تعبر برقي عن الروح، وعن الذكاء، وتكون الوسيلة الوحيدة للكتابة والقراءة والإنشاء والحساب والتفكير، وبهذه الخطة الصارمة: "توحدت الحياة السياسية والثقافية والدينية والفكرية في فرنسا"١١٩، ويتعاملون معنا ومع العربية بشعار: حلال علينا، حرام عليكم.

وإلى أن يصدر هذا القرار المصيري، يتوجب على أبناء العربية المخلصين من العلماء والمفكرين والمثقفين والباحثين وحملة الأقلام بعامة أن يقوموا بدورهم في : "التوجيه والتوعية، وقيادة المعركة الفكرية في اتجاهها الصحيح، والإسهام بكتاباتهم وبحوثهم ومشاريعهم العلمية ونظرياتهم التطبيقية في حل مشاكل العربية والتغلب على معيقاتها، وتجنيد ما بالإمكان تجنيده من وسائل الإعلام وتقنياته، وطاقات الشباب الحية المتنورة، وجمعيات المجتمع المدني، للنهوض بالعربية، وتجميع كل الأفكار المفيدة التي تخدم الغرض وتؤدي لتحقيق

الهدف"١٢٠.

الخاتمة ونتائج الدراسة

لقد أكدت لنا الدراسات والوثائق والأحداث أن الدعوة إلى العامية القائمة في البلدان العربية على قدم وساق مصدرها الغرب الاستعماري، فمنه مبدؤها وإليه منتهاها. وعلى الرغم من أن الحجج التي يطرحها أنصارها متهافتة يدحضها المفكرون والمتخصصون عند أول نقاش أو مناظرة، ويظهرون بقوة الدليل العقلي والواقعي مصادمتها لطبائع الأشياء، إلا أن الإصرار على أن تظل منابرها قائمة، وأصواتها مسموعة، ونفوذها يتسع يوما بعد يوم يثير الشك ويدفع إلى التساؤل. وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- أن التعددية اللغوية في مجتمع ما والتي تتمظهر في لغة فصيحة راقية إلى جانب لغة عامية بسيطة أمر طبيعي تعرفه جميع لغات العالم وليست العربية شاذة في هذا الأمر.
- أن الدعوة إلى العامية قد تشكلت بداياتها المبكرة في المدارس الأوروبية التي انتشرت في مختلف العواصم الغربية وتخصصت في تدريس العاميات العربية لفئة معينة لإعدادها لمهام تجسسية استعمارية للتمهيد لعملية اختراق واسعة للوطن العربي قبل الإقدام على احتلاله عسكريا.
- أن الدعوة إلى العامية بدأت بشكل علني واضح على أيدي المستشرقين في مصر ضمن خطة مدروسة بإحكام، بحيث تتابعت منتظمة ومتسلسلة مع وجود فارق بضعة سنين بين كل دعوة وأخرى إلى أن أصبحت قضية تفرض نفسها على الواقع الفكري العربي .
- أن دعاة العامية من العرب لم يثيروا قضية الدعوة إلى العامية ولم يخوضوا في حيثياتها إلا بعد أن بسطها المستشرقون الأوروبيون وألحوا عليها ووضعوا فيها المؤلفات وأوصلوها إلى الصحافة، فوجدت من يؤيدها منهم، ووجدوا من يدعمهم من إدارة الاحتلال ويشجعهم عليها، ويجد لها المبررات، وينشرها على نطاق واسع.
- أن الدعوة إلى العامية قد ظهرت بقوة في مصر وبنسب متفاوتة في لبنان والعراق وباقي الدول والعربية، وقد فجَّرت صراعا عنيفا بين دعاة العامية وحماة الفصحى سجلته صفحات الجرائد والمجلات، ومجالس الندوات والمحاضرات، حيث تصدى لهذه الدعوة أعداد لا تحصى من العلماء والمفكرين واللغويين والخبراء والمتخصصين بالدليل والحجة العلمية الناصعة.
- أن الدعوة إلى العامية في الشمال الإفريقي قد جاءت هي الأخرى في ركاب الاستعمار الفرنسي الذي جعل منها وسيلة ناجعة لقتل العربية وإحلال الفرنسية محلها.
- أن الدعوة إلى العامية في الجزائر مرت في العهد الاستعماري بثلاث مراحل: مرحلة الغزو العسكري الذي اتخذت فيه طابع الإكراه والجبر بسبب الحروب التي لم يخبُ أوارها إلا مع بداية القرن العشرين، والمرحلة الثانية التي لبست فيها هذه الدعوة لباس العلم وتبناها المستشرقون الذين ألفوا فيها الكتب ووضعوا المعاجم ليزاحموا بها الفصحى على ألسنة الجزائريين، والمرحلة الثالثة التي احتضنت فيها جامعة الجزائر هذه الحركة ودعمتها بالبحوث والدراسات النظرية والتطبيقية، وخصصت لها حيزا هاما في النشاط الاستشراقي الذي كانت تقوم به.
- أن المدرسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر يمكن اعتبارها من أهم المدارس على الإطلاق في خدمة العامية لأزيد من قرن من الزمان
- أن الدعوة إلى العامية قد خفت صوتها في الجزائر بعد الاستقلال قليلا لثقة السلطات الاستعمارية في ترسانة الكوادر الفرانكفونية الذين سلمتهم مقاليد البلاد للحفاظ على الفرنسية لغة أولى ورئيسية وعززت ذلك بما ضمنته لها اتفاقيات إيفيان من امتيازات وصلاحيات.
- أن الدعوة إلى العامية قد عاودت الظهور مع أواخر السبعينات من القرن العشرين بعد أن شقت قوانين التعريب طريقا وعرا نحو المدرسة الجزائرية واستطاعت الإرادة الشعبية أن تفرض العربية على مراحل التعليم الثلاثة: الابتدائي والمتوسط والثانوي. لكن الداعين إليها كانوا قلة وسرعان ما طواهم الصمت.
- أن الدعوة إلى العامية أطلت برأسها من جديد خلال السنوات الأخيرة مستغلة تدهور مستوى التعليم بسبب المناهج المستوردة لتعلن أن

اللغة العربية هي المسؤولة عن هذا الفشل لصعوبتها وتعقيدها وقصورها عن اللحاق بركب العصر، وأن قوانين التعريب التي طبقت خلال السنوات الماضية قد خرجت الإرهابيين لاعتمادها على العربية، وتوجت هذه الحملة باعتماد إصلاحات عام ٢٠٠٣م التي وسعت مجال استعمال اللغة الفرنسية، وانتهت بتصريح وزيرة التربية والتعليم نورية بن غبريط بتدريس العامية في سنوات الابتدائي.

- أن الدعوة إلى العامية في بلدان المغرب العربي الثلاثة تكاد تكون نسخة طبق الأصل لبعضها بعضا، لأنها كانت تسير وفق مخطط فرانكفوني واحد مصدره فرنسا التي كانت حريصة على الحفاظ على نفوذها وسلطة لغتها في مستعمراتها القديمة حتى تضمن ولاءها وديمومة تبعيتها لها وعدم انجرافها مع تيار العولمة في اتجاه قوة أخرى من القوى العالمية النافذة.
- أن الدعوة إلى العامية في بلدان المغرب العربي لم تمر بسهولة، وإنما واجهها سيل هادر من الردود والاحتجاجات، ومواقف صارمة ورافضة من مختلف الفعاليات الاجتماعية، سواء تعلق الأمر بهيئات التدريس أم بنقابات الأساتذة والمعلمين، أم بعلماء الدين من الأئمة والدعاة، أم بالنخبة المثقفة من جامعيين ومؤرخين ومفكرين، وباحثين، أم بالأحزاب السياسية، وغيرها من أطياف المجتمع المدني الذين تكتلوا للدفاع عن أهم مقوم من مقومات الشخصية الوطنية.
- أن المخاطر التي تتهدد العربية من جراء الدعوة إلى العامية كثيرة ومتنوعة، وهي ذات تأثير مميت على جميع المقومات الحضارية للأمة وأهمها على الإطلاق: القضاء على الإسلام بإماتة العربية التي هي الوعاء الذي يحتويه وينقل معانيه وحقائقه للأجيال، وقطع الصلة بين الأمة وتراثها الزاخر مما يؤدي إلى فقدانها لهويتها وانسلاخها من ماضيها ووقوعها فريسة للقوى العالمية التي ترمي إلى إدماجها في منظومتها الحضارية لتصبح أحد الأطراف التابعة، وتكريس العقم الفكري والضعف العقلي وقتل الإبداع الأدبي باستبدال لغة حية واسعة مضبوطة بعامية واهية متفلتة، وتمزيق وحدة الوطن ووحدة الأمة وتحويلها إلى طوائف وقبائل وعروش منعزلة لا يربطها ببعضها شيء، وغيرها من المخاطر الناجمة عن اغتيال لغة عظيمة حملت أعباء حضارة شامخة حفظت تراث الأولين ومهدت السبيل لنهضة الآخرين، وكانت في الأول والآخر لسان كتاب رب العالمين.
- أن أبناء العربية المخلصين مطالبون بكل فئاتهم ومؤهلاتهم بوضع إستراتيجية شاملة لمواجهة هذه المخاطر الداهمة، والعمل على دفع غوائل العامية والفرنسة بقدر ما تتيح لهم جهودهم وإمكاناتهم. والمطلوب العاجل هو:
- إعادة الثقة بالنفس للإنسان العربي وتوعيته بمخاطر المرحلة التاريخية التي يعيشها وزرع الأمل في غد أجمل وبث روح الاعتزاز بانتمائه العربي الإسلامي وبلغته ذات الميراث الحضاري العريق، وتبصيره بحقيقة المؤامرة التي تستهدف هذه اللغة. والتنبيه إلى مخاطر العامية ومخاطر الفرانكفونية التي تعمل بجد لإحلال الفرنسية محل العربية والعامية معا، ومحاولة إصلاح لغة الإعلام ولغة الحديث في المساجد والتجمعات العامة، والعناية بتكوين المعلمين تكوينا لغويا سليما، وتهيئة العربية تهيئة رقمية لإكسابها القدرة على التفاعل مع العولمة تفاعلا إيجابيا مثمرا.
- وأهم بند في هذه الإستراتيجية وأكثره تأثيرا هو توفير القرار السياسي الحازم المؤيد بالقوانين الصارمة والرادعة لحماية العربية وحسن تطبيقها وإعداد الخطط اللازمة لنشرها بين الناس والتمكين لها في مؤسسات الدولة وتفعيلها لتكون رائدتنا إلى النهضة والرقي اقتداءً بجميع الأمم التي بلغت قمة التقدم بالاعتماد على لغاتها.

قائمة المصادر والمراجع

أ ـ المراجع العربية

١. . أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة.

٢. . أحمد أنور سيد أحمد الجندي. المعارك الأدبية. مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة. ١٩٨٣م

٣. . أحمد ناشف. تعريب التعليم في الجزائر بين الطرح المعرفي والطرح الإيديولوجي.مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع. الجزائر

٤. . إبراهيم أنيس. في اللهجات العربية. مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة. ٢٠٠٣م

٥. . أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني.أعلام وأقزام في ميزان الإسلام. دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع. جدة. ط١. ١٤٢٤هـ

ـ ٢٠٠٤م
٦. ـ أنور الجندي. الفصحى لغة القرآن. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
٧. ـ أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٩٩٨م
٨. ـ أرنولد توينبي. مختصر دراسة للتاريخ. ترجمة: فؤاد محمد شبل. المركز القومي للترجمة. القاهرة. ط ١. ٢٠١١
٩. ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد. الإحكام في أصول الأحكام. تحقيق: أحمد محمد شاكر. دار الآفاق الجديدة. بيروت
١٠. دانيال ريغ. رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا. ترجمة:إبراهيم صحراوي. دار التنوير للنشر والتوزيع. الجزائر. ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
١١. ـ ريمون الطحان ودنيز بيطار الطحان. اللغة العربية وتحديات العصر. دار الكتاب اللبناني . بيروت. ط٢. ١٩٨٤م.
١٢. شارل روبير أجرون. الجزائريون المسلمون وفرنسا ١٨٧١ ـ ١٩١٩م. ترجمة: محمد حاج مسعود و أ.بكلي. دار الرائد للكتاب. الجزائر. ط ١. ٢٠٠٧م
١٣. ـ علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة . نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٢. أبريل ٢٠٠٤م
١٤. ـ عبد الرحمن بن محمد القعود. "الازدواج اللغوي بين الفصيحة والعامية وعلاجه"، ندوة حول ظاهرة الضعف اللغوي في المرحلة الجامعية. ١٧/١٠/١٩٩٥م. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض
١٥. سلامة موسى. الأدب للشعب. طبعة مصر، ١٩٥٦م
١٦. ـ عبد العلي الودغيري. الفرانكوفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب. السلسلة الجديدة. رقم ٧. دار العلم. الرباط. ط ١. ١٩٩٣م
١٧. ـ عثمان سعدي، اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها مقارنة بين عامية الجزائر قبل الاستقلال وبعده، الفصحى وعامياتها،
١٨. ـ عيسى إسكندر المعلوف. (اللهجة العربية العامية). اللهجات العربية : بحوث ودراسات
١٩. ـ كمال يوسف الحاج. فلسفة اللغة. دار النهار. بيروت. ١٩٦٧م.
٢٠. كوليت وفرانسيس جونسون. الجزائر الثائرة. ترجمة: محمد علوي الشريف وآخرون. دار الهلال. القاهرة. ١٩٥٧م.
٢١. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.اللهجات العربية : بحوث ودراسات، جمع وإعداد: ثروت عبد السميع. القاهرة. ٢٠٠٤م
٢٢. ـ محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٩٩٧م
٢٣. ـ محمد الغزالي. سر تأخر العرب والمسلمين. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٦. مارس ٢٠٠٥م
٢٤. ـ محمد عبد الله عطوات. اللغة الفصحى والعامية. دار النهضة العربية. بيروت. ط ١. ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
٢٥. ـ محمد علي دبوز. تاريخ المغرب الكبير. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. ط ١. ١٩٨٤م
٢٦. ـ محمد العربي معريش. الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية. دار الغرب الإسلامي. بيروت . ٢٠٠٩م
٢٧. ـ محمد الصغير غانم. المملكة النوميدية والحضارة البونية. دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. ٢٠٠٦م
٢٨. ـ محمود محمد شاكر. أباطيل وأسمار. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط ٣. ٢٠٠٥م
٢٩. ـ محمود المقداد. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. رقم ١٦٧. نوفمبر ١٩٩٢م
٣٠. ـ مختار نويوات، الصلة بين العربية الفصحى وعاميتها بالجزائر "المعالم الكبرى"، الفصحى وعامياتها، لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، دار الخلدونية للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، ط ١ . ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م
٣١. مصطفى بن حمزة. الدعوة إلى العامية المسار والأهداف.مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة. المغرب
٣٢. ـ مصطفى صادق الرافعي. تحت راية القرآن، المعركة بين القديم والجديد. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. مدينة نصر. القاهرة.
٣٣. نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. دار نشر الثقافة بالإسكندرية. ط١. ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م

ب ـ الجرائد والدوريات

٣٤. ـ مجلة الممارسات اللغوية. ع ٠٦. ٢٠١١م. جامعة مولود معمري . تيزي وزو . الجزائر

٣٥. ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. كانون الثاني ١٩٥٧م ـ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ . مج ٣٢

٣٦. ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ع ٨٣. رجب ١٤١٩هـ ـ نوفمبر ١٩٩٨م

٣٧. ـ ع ٨٩. شعبان ١٤٢١هـ نوفمبر ٢٠٠٠م

٣٨. ـ منتدى الأستاذ. دورية أكاديمية محكمة. المدرسة العليا للأساتذة. قسنطينة. الجزائر. ع ١٢. جوان ٢٠١٢م

٣٩. ـ مجلة المقتطف. س ٦. نوفمبر ١٨٨١م

٤٠. ـ مجلة التسامح. ع ٣٢. ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

٤١. ـ مجلة الثقافة. ع ٨٧. مايو ـ يونيو ١٩٨٥م. الجزائر

٤٢. ـ جريدة الشروق الجزائرية الصادرة يوم الثلاثاء ١١/٠٨/٢٠١٥م، ع ٤٨٢٤

٤٣. ـ المجلة الآسيوية. ١٩٢٠م.

٤٤. ـ المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا. ١٩٣١

ج ـ المواقع الالكترونية

٤٥ http://www.ahdath.info/?p=٧٠٦

٤٦ https://www.facebook.com/AlArabiyaFiAlmaghrib/posts/٣٣٥٠١١٤١٩٩٥٤٨١٩

٤٧ http://shbabisdod.ahlamountada.com/t٦٦-topic

٤٨ http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/Addad٥٦partie٤/adaa٥٦.htm

٤٩ http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=٩٨&a=٤٨٦٧٧

٥٠ http://www.fenni-dz.net

د ـ المراجع الأجنبية

٥١ Henri Boyer: Introduction à la sociolinguistique; éd.، Dunod; Paris ٢٠٠١.

٥٢ LESRAM، Mohamed.- L'enseignement supérieur musulman : la khaldounia à Tunis.- Tunisie-Actualités (٣)، spécial، ١٩٧٣، VIIè année

الهوامش

١ علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة . نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٢. أبريل ٢٠٠٤م. ص ٩٤

٢ عبد الكريم خليفة. "العربية الفصحى بين لهجاتها وعامياتها المختلفة". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ع ٨٩. ص ١١٩

٣ علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة. ص ١٠٤

٤ أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. مادة (لحن)

٥ زين الدين بن موسى. "عاميات تهدد مستقبل الفصحى في الجزائر". منتدى الأستاذ. دورية أكاديمية محكمة. المدرسة العليا للأساتذة. قسنطينة. ع ١٢. جوان ٢٠١٢م. ص ٦٩

٦ علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة. ص ١٥٣

٧ إبراهيم أنيس. في اللهجات العربية. مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة. ٢٠٠٣. ص ١٦

٨ عبد الله المناعمة. اللهجة بين اللغة والاصطلاح. http://shbabisdod.ahlamountada.com/t٦٦-topic

٩ عبد الرحمن بن محمد القعود. "الازدواج اللغوي بين الفصيحة والعامية وعلاجه"، ندوة حول ظاهرة الضعف اللغوي في المرحلة الجامعية. ١٧/١٠/١٩٩٥م. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض. ج ١. ص ١٩٤

١٠ ريمون الطحان ودنيز بيطار الطحان. اللغة العربية وتحديات العصر. دار الكتاب اللبناني . بيروت. ط٢. ١٩٨٤م. ص ٣٩. ٤٠

١١ كمال يوسف الحاج. فلسفة اللغة. دار النهار. بيروت. ١٩٦٧م. ص ٢٥٤

١٢ Henri Boyer: Introduction à la sociolinguistique; éd.. Dunod; Paris ٢٠٠١.

١٣ Ibid

١٤ زين الدين بن موسى. "عاميات تهدد مستقبل الفصحى في الجزائر". منتدى الأستاذ. دورية أكاديمية محكمة. المدرسة العليا للأساتذة. قسنطينة. ع ١٢. جوان ٢٠١٢م. ص ٦٩

١٥ محمود المقداد. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. رقم ١٦٧. نوفمبر ١٩٩٢م. ص ١٨٨

١٦ محمد بن شريفة. "حول معاجم اللغة العامية المغربية، ". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.ع ٨٩ . شعبان ١٤٢١هـ. نوفمبر ٢٠٠٠م. ص ١٥٣

١٧ محمود محمد شاكر. أباطيل وأسمار. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط ٣. ٢٠٠٥ . ص ١٨٥

١٨ المرجع نفسه. ص ١٨٥

١٩ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. دار نشر الثقافة بالإسكندرية. ط١. ١٣٨٣هـ. ١٩٦٤م. ص ١٨

٢٠ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. ص ٢٩

٢١ البونية لغة منحدرة من الفينيقية وهي إحدى اللغات السامية. انتشرت في شمال إفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط مع انتشار الحضارة الفينيقية فيها واتساع مجال التواصل بين الطرفين وكانت هي اللغة الرسمية في مختلف ممالك شمال إفريقيا. وقد وفدت إليهم من فينيقيا التي كان مقرها في صيدا وصور من مدن لبنان ونشرت حضارتها واتسع نفوذها في هذه المناطق منذ ٨٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم اختفت بعد الهجوم الروماني على بلدانها وتدميره لكل معالمها، ولم يبق منها سوى مجموعة من النقوش لكن آثار اللغة البونية لا زالت موجودة في ألسنة شعوب هذه المناطق. (راجع: محمد علي دبوز. تاريخ المغرب الكبير. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. ط ١. ١٩٨٤م. ج ١ . و: محمد الصغير غانم. المملكة النوميدية والحضارة البونية. دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. ٢٠٠٦)

٢٢ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، ص ٤٢

٢٣ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، ص ٣٩

٢٤ "اللغة العربية والنجاح". مجلة المقتطف. س ٦. نوفمبر ١٨٨١م. ص ٣٥٢. ٣٥٤

٢٥ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. ص ١٠٠

٢٦ محمود محمد شاكر. أباطيل وأسمار. ص ٢٠٩

٢٧نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص ١٢٦

٢٨ المرجع نفسه، ص ١٢٦

٢٩ المرجع نفسه، ص ١٣٣

٣٠ المرجع نفسه، ص ١٥٢

٣١ المرجع نفسه، ص ٤٨

٣٢ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، ص ١٤٥

٣٣ المرجع نفسه، ص ١٤٥

٣٤ أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني.أعلام وأقزام في ميزان الإسلام. دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع. جدة. ط١.. ٢٠٠٤م. ج١. ص ٤٧٠

٣٥ أنور الجندي. الفصحى لغة القرآن. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م. ص ١٨٨
٣٦ المرجع نفسه. ص ٢٠٦
٣٧ أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني. أعلام وأقزام في ميزان الإسلام. ج١. ص ٤٧١
٣٨ أحمد أنور سيد أحمد الجندي. المعارك الأدبية. مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة. ١٩٨٣م. ص ٨
٣٩ مصطفى بن حمزة. الدعوة إلى العامية المسار والأهداف. مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة. المغرب. ص ٢٩
٤٠ عبد العلي الودغيري. الفرانكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب. السلسلة الجديدة. رقم ٧. دار العلم. الرباط. ط ١. ١٩٩٣م. ص ١٧٦
٤١ مصطفى بن حمزة. الدعوة إلى العامية المسار والأهداف. ص ٤٢
٤٢ عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب (الجذور والامتدادات. الأهداف والمسوغات)
٤٣ – LESRAM، Mohamed.– L'enseignement supérieur musulman : la khaldounia à Tunis.– Tunisie–Actualités (٣)، spécial، ١٩٧٣، VIIè année.– p. ٣٥.
٤٤عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب: الجذور والامتدادات، الأهداف والمسوغات. المركز المغربي للأبحاث والدراسات. الرباط.
٤٥ محمد بن شريفة. حول معاجم اللغة العامية المغربية: عرض تاريخي. مجلة مجمع اللغة العربية . ع ٨٩. ص ١٣٧
٤٦ أحمد سوالم. الهوية اللغوية والدينية بالمغرب وتونس خلال الحماية الفرنسية. http://www.ahdath.info/?p=٧٠٦
٤٧ زين الدين بن موسى. "عاميات تهدد مستقبل الفصحى في الجزائر". مجلة منتدى الأستاذ. ص ٧٦
٤٨ أبو القاسم سعد الله. التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٣. ص ١٥٤
٤٩ المرجع نفسه. ع ٨٣. ص ١٥٣ ـ ١٥٤
٥٠ محمود المقداد. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا.عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. رقم ١٦٧. نوفمبر ١٩٩٢م. ص ١١١
٥١ أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٩٩٨م. ص ٤٤
٥٢ المصدر نفسه ج ٦. ص ٤٥
٥٣ رينيه باسيه. "تقرير عن جهود فرنسا العلمية في الجزائر وشمالي إفريقيا" . المجلة الآسيوية. ١٩٢٠م. ص ٩٣
٥٤ نجيب عقيقي. المستشرقون.ج ١ ص ١٩٢
٥٥ المرجع نفسه. ص ١٩٢
٥٦ محمد بسكر. اهتمامات الاستشراق الفرنسي وتوجهاته في المغرب العربي قراءة أنموذجية في التراث الجزائري.
http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=٩٨&a=٤٨٦٧٧
٥٧ دانيال ريغ. رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا. ترجمة:إبراهيم صحراوي. دار التنوير للنشر والتوزيع. الجزائر. ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م. ص ١٧٢
٥٨ محمد العربي معريش. الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية. دار الغرب الإسلامي. بيروت . ٢٠٠٩م. ص ٢٧٤
٥٩ نجيب عقيقي. المستشرقون. ج ١ ص ٢٠٥
٦٠ المقصود بالدين الشعبي المعتقدات الشعبية المتصلة بالدين
٦١ إدموند بوك. فرنسا وسوسيولوجيا الإسلام الكلاسيكية. ترجمة: يونس الوكيلي. مجلة التسامح. ع ٣٢. ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.
٦٢ نجيب عقيقي. المستشرقون. ص ٢٣٦
٦٣ المرجع نفسه، ص ٢٤٧
٦٤ نوع من الطرابيش شائع الاستعمال في شمال إفريقيا
٦٥ محمد زرمان. محمد بن أبي شنب وجهوده الأدبية والعلمية. ط ١. ٢٠٠٧م. باتنة. ص ٤٩
٦٦ محمد البشير الإبراهيمي. "أنا". مجلة الثقافة. ع ٨٧. مايو. يونيو ١٩٨٥م. الجزائر. ص ٢٧

٦٧ كوليت وفرانسيس جونسون. الجزائر الثائرة. ترجمة: محمد علوي الشريف وآخرون. دار الهلال. القاهرة. ١٩٥٧م. ص ١٣٠

٦٨ جوزيف ديبارمي. "رد الفعل اللغوي". المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا. ١٩٣١. ص ٩٦٢. نقلا عن : أبو القاسم سعد الله . " التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ع ٨٣. ص ١٥٩

٦٩ شارل روبير أجرون. الجزائريون المسلمون وفرنسا ١٨٧١ ـ ١٩١٩م. ترجمة: محمد حاج مسعود و أ.بكلي. دار الرائد للكتاب. الجزائر. ط ١. ٢٠٠٧م. ج ٢. ص ٨٨٧

٧٠ أبو القاسم سعد الله . " التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ع ٨٣. ـ نوفمبر ١٩٩٨م. ص ١٦٣

٧١ فيليب مارسيه. "التساكن في الجزائر". السكرتارية الاجتماعية لمدينة الجزائر. ١٩٥٦م. ص ٥٧. نقلا عن: أبو القاسم سعد الله . " التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ع ٨٣. ص ١٥٥

٧٢ جوزيف ديبارمي. "رد الفعل اللغوي". المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا. ١٩٣١. ص ٢ إلى ١٠. نقلا عن : أبو القاسم سعد الله . " التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ع ٨٣. ص ١٥٧

٧٣ les gaulois هم أجداد الفرنسيين.

٧٤ جوزيف ديبارمي. "رد الفعل اللغوي". المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا. ١٩٣١. ص ٢١٠. نقلا عن : أبو القاسم سعد الله . " التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال". مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ع ٨٣. ص ١٥٧

٧٥ أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج ٨. ص ٣٠

٧٦ عبد العلي الودغيري. مجلة الممارسات اللغوية. ص ٩١

٧٧ عبد الناصر المقري. الفرانكفونية ومحنة اللغة العربية بالمغرب. مجلة البيان. ع ٥٠. ص ١٧٧

https://www.facebook.com/AlArabiyaFiAlmaghrib/posts/٣٣٥٠١١٤١٩٩٥٤٨١٩

٧٨ أحمد ناشف. تعريب التعليم في الجزائر بين الطرح المعرفي والطرح الإيديولوجي.مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع. الجزائر. ٢٠١١م. ص ٣٣

٧٩ مختار نويوات، الصلة بين العربية الفصحى وعاميتها بالجزائر "المعالم الكبرى"، الفصحى وعامياتها، لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، دار الخلدونية للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، ط ١. ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م. ص ١٣٢

٨٠ عثمان سعدي، اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها مقارنة بين عامية الجزائر قبل الاستقلال وبعده، أعمال الندوة الدولية حول الفصحى وعامياتها. ٢٠٠٧م، ص١١١

٨١ بن علي بن زاغو: رئيس لجنة إصلاح المنظومة التربوية، رئيس جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا أحيل على التقاعد سنة ٢٠١٥.

٨٢ مليكة بن قريفو: أخصائية في علم النفس المدرسي والتربوي وصاحبة أول مدرسة خاصة في الجزائر. رفضت الدعوة إلى العامية التي تبنتها وزيرة التربية والتعليم نورية بن غبريط، وانتقدت الشخصيات النافذة في وزارة التربية التي احتكرت نصوص الكتب المدرسية وحولتها إلى مشروع تجاري على حساب مستقبل أبناء الجزائر الفكري والحضاري.

٨٣ عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب: الجذور والامتدادات، الأهداف والمسوغات.

٨٤ راجع جريدة الشروق الجزائرية الصادرة يوم الثلاثاء ٢٠١٥/٠٨/١١م، ع ٤٨٢٤

٨٥ نورية بن غبريط رمعون: باحثة ومؤلفة جزائرية. تحصلت على دكتوراه في علم الاجتماع من جامعة باريس عام ١٩٨٢م. درست في جامعة وهران. شغلت مركز مديرة المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران. وكانت عضوا في لجنة بن زاغو التي تكفلت بإصلاح المنظومة التربوية بالجزائر، وشغلت عددا من المناصب في هيئة اليونسكو والأمم المتحدة. وهي تشغل الآن منصب وزيرة التربية والتعليم بالجزائر منذ ٠٥ مايو ٢٠١٤.

٨٦ مصطفى صادق الرافعي. تحت راية القرآن، المعركة بين القديم والجديد. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. مدينة نصر. القاهرة. ص ٢٥

٨٧ مصطفى صادق الرافعي. تحت راية القرآن،. ص ٢٥

٨٨عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب: الجذور والامتدادات، الأهداف والمسوغات.

٨٩ عبد العلي الودغيري. "اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية". مجلة الممارسات اللغوية. جامعة مولود معمري. تيزي وزو. الجزائر. ع ٠٦. ٢٠١١م .ص ٩١
٩٠ أرنولد توينبي. مختصر دراسة للتاريخ. ترجمة: فؤاد محمد شبل. المركز القومي للترجمة. القاهرة. ٢٠١١م. ج ١.ص ٢١٨
٩١ عبد العلي الودغيري. "اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية" . مجلة الممارسات اللغوية.ص ٨٩
٩٢ محمد الغزالي. سر تأخر العرب والمسلمين. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٦. مارس ٢٠٠٥م. ص ١٣٣
٩٣ محمد شوقي الزين. العامية أو القدر الأعمى للعربية. http://www.fenni-dz.net
٩٤ محمد عبد الله عطوات. اللغة الفصحى والعامية. دار النهضة العربية. بيروت. ط ١. ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م. ص ٦٥-٦٦
٩٥ علي عبد الواحد وافي. فقه اللغة. ص ١٢٢
٩٦ عيسى إسكندر المعلوف. (اللهجة العربية العامية). ضمن كتاب اللهجات العربية : بحوث ودراسات، جمع وإعداد: ثروت عبد السميع. مجمع اللغة العربية. القاهرة. ٢٠٠٤م . ص ١٥
٩٧ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. ص ٥٦
٩٨ المرجع نفسه، ص ٦١
٩٩ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، ص ١٠٨
١٠٠ مصطفى بن حمزة. الدعوة إلى العامية المسار والأهداف. ص ٥١
١٠١ المرجع نفسه. ص ٥٥-٥٦
١٠٢ عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب (الجذور والامتدادات- الأهداف والمسوغات)
١٠٣ عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب (الجذور والامتدادات- الأهداف والمسوغات)
١٠٤ مصطفى صادق الرافعي . تحت راية القرآن. ص ٤٠
١٠٥ عبد العلي الودغيري. مجلة ممارسات لغوية. ع ٠٦. ٢٠١١م. ص ٩٠
١٠٦ نفوسة زكريا سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. ص ٢٠
١٠٧ عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب (الجذور والامتدادات- الأهداف والمسوغات)
١٠٨ المرجع نفسه
١٠٩ منصور فهمي. مجمع مصر واللغة العربية. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. كانون الثاني ١٩٥٧م- جمادى الأولى ١٣٧٦هـ . مج ٣٢. ج١. ص ٧٠
١١٠ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي. الإحكام في أصول الأحكام. تحقيق: أحمد محمد شاكر. دار الآفاق الجديدة. بيروت. ج ١ ص ٣٢
١١١ عبد العلي الودغيري. اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية. مجلة الممارسات اللغوية. ص ٩٨
١١٢ منصور فهمي. مجمع مصر واللغة العربية. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. كانون الثاني ١٩٥٧م- جمادى الأولى ١٣٧٦هـ . مج ٣٢. ج١. ص ٧١
١١٣ محمد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٩٩٧م. ج ١. ص ١٤٩
١١٤ عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب (الجذور والامتدادات- الأهداف والمسوغات).
١١٥ المرجع نفسه
١١٦ عبد العلي الودغيري. الدعوة إلى الدارجة بالمغرب (الجذور والامتدادات- الأهداف والمسوغات).
١١٧ محمد شوقي الزين. العامية أو القدر الأعمى للعربية http://www.fenni-dz.net
١١٨ بكر التميمي. العربية لم تدخل عصر الرقمنة بعد https://neoreading.wordpress.com/٢٠٠٩/١١/٠٥
١١٩ محمد شوقي الزين. العامية أو القدر الأعمى للعربية. http://www.fenni-dz.net
١٢٠ عبد العلي الودغيري. اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية. مجلة الممارسات اللغوية. ع ٠٦. ٢٠١١م. ص ١٢٧